كتاب الهلال

الشيخ محمد عبده

رسالة التوحيد

تقديم وتحقيق وتعليق

طاهر الطناحي

سلسلة ثقافية شهرية

١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٤٣ ـ رمضان ١٣٨٢ ـ فبراير ١٩٦٣

No. 143 — FEBRUARY 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

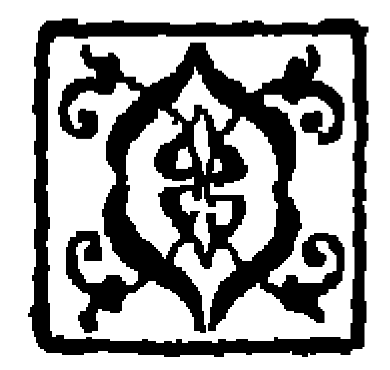
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان جنيه واحد ـ فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى جنيه و ٣٠٠ مليم و (الطائرة) ١٫٧٨٠ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الكتاب الرابع من المجموعة الإسلامية

لتراث الأستاذ الإمام

رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

تقديم وتحقيق وتعليق

طاهر الطناحي

دار الهلال



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

تقديم

بقلم طاهر الطناحي

هذا الكتاب « رسالة التوحيد » هو الكتاب الرابع من المجموعة الاسلامية لتراث حكيم الاسلام الاستاذ الامام محمد عبده ، التى عنيت بتقديمها وتحقيقها والتعليق عليها واخراجها فى ثوب جديد ، احياء لذكرى هذا الامام، وتعريفا بالاسلام فى عصرنا الحديث عن طريق هديه وارشاده وكشفه عن حقيقة هذا الدين الحنيف ، الذى قال عنه رحمه الله فى بعض مواقفه : « الاسلام محجوب بالمسلمين » !

وقد الف هذه الرسالة ايام نفيه ، بعد محاكمته، كزعيم من زعماء الثورة العرابية ، وقد حكم عليه بابعاده عن القطر المصرى ثلاث سنوات فى ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م . فسافر الى بيروت ، واختارها مقاما لمنفاه . ولكنه مالبث أن تلقى دعوة من أستاذه السيد جمال الدين الافغانى ، للحاق به فى باريس ، فسافر الى هذه المدينة ، وأنشأ فيها معه جمعية سياسية سرية باسم « جمعية العروة الوثقى » لخدمة العالم الاسلامى وتحريره من ربقة الاستعمار والمستعمرين . وقد لبى دعوتهما الى عضويتها كثير من زعماء المسلمين . . ثم أصدرا جريدة أسبوعية كانت لسان حال هذه

الجمعية ، هى « العـروة الوثقى » تولى رياسة تحريرها الاستاذ الامام

جهاد قبل الرسالة

وقد أخذت هذه الجريدة بجهود هذين الزعيمين المفكرين تدافع عن الاسلام وأقطـاره ، وتدافع عن الشرق واهله ضد الاستعمار الاوربى واستبداده بالوطنيـين مسلمين ومسيحيين على السواء . وكان لصوت هذه الجريدة تأثير عظيم فى الشرق والغرب ، حتى خافها الانجليز وسـائر المستعمـرين . واجتمـع مجلس النظار فى مصر بايعاز المحتلين ، وقرر مصادرتها ، ومنعها من الدخول فى البلاد المصرية . وقد بعث تأثير هذه الجريدة وما فيها من مقالات بليغة الشاعر العربى الكبير شكيب ارسلان الى أن يقول فى مدح السيد جمال الدين :

ومعـان لو أوحيت لجمـاد
هزه الشوق نحوها والغرام
حيرت كل ذى حصاة الى أن
قيل لاشـك أنهـا الهـام

ثم يقول فى مدح رئيس تحريرها ، والاشادة بأسلوبه وبيانه القوى الرائع :

كـلام اذا ألقيتـه فى جمـاعة
غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب ينسق
عليه من النـور الالهى مسحـة
تكـاد على أرجائه تتـألق

وقد احدثت « العروة الوثقى » انقلابا كبيرا فى الافكـار والعواطف بالاقطار الاسلامية حتى ندم المستعمرون على نفى الامام محمد عبده ، لانهم أتاحوا له مجالا أوسع لنشر

آرائه الوطنية ، وايقاظه للغافلين الذين يسيطر عليهم الاستعمار ، وأخذوا يحاربون هذه الجريدة بكل وسيلة ، حتى أغلقت فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ الموافق لشهر اكتوبر سنة ١٨٨٤ م

عاد الاستاذ الامام الى بيروت ، واتخذها دارا لتعليم الناس أمور دينهم وارشادهم الى خير دنياهم . وكانت سنه وقتئذ لا تزيد على خمسة وثلاثين عاما . وقدبدأت فى ذلك الحين نهضة علمية اسلامية بهذه المدينة ، فتأسست جمعية المقاصد الخيرية ، التى أنشأت عدة مدارس ابتدائية وثانوية بلبنان ، ثم أسست مدرسة عالية تدعى « المدرسة السلطانية »

وكانت دار الامام بعد اخفاقه فى باريس وعودته الى بيروت ، مرادا لطلاب العلم ومحبيه والمريدين له ،يقبلون عليه من انحاء لبنان وسائر بلاد الشام ، فكان يلقى عليهم فى داره دروسا فى اللغة والدين ، ثم ناشدوه أن يلقى دروسا فى مجال أوسع ليستفيد من علمه وآرائه أكبر عدد ممكن من الناس ، فأخذ يلقى دروسا فى تفسير القرآن الكريم وبعض علوم الدين فىالجامع الكبير ، وجامع الباشورة . وكان أثناء درسه فى التفسير يمسك المصحف وحده ، لا يعتمد فى تفسير آياته الا على علمه وذكائه والهامه . وكان الناس يقبلون عليه اقبالا كبيرا ، حتى غبط المسيحيون عليه المسلمين ، واستأذنه بعضهم فى دخول المسجد ، والاستماع الى دروسه ، فأذن لهم ، واصبح الكثيرون منهم له مريدين !

فى المدرسة السلطانية

وقد رأى رئيس جمعية المقاصد الخيرية وأعضاؤها ،

أنهم فى حاجة الى أستاذ جليل يقوم باحياء اللغة العربية وأحكام الدين الاسلامى على طريقة تربوية نافعة تلائم روح العصر ، وتتفق وهداية الاسلام ، فدعوه الى التدريس فى هذه المدرسة العالية .. فلبى الدعوة فى أول عام ١٣٠٣ هـ الموافق عام ١٨٨٥ م ، ووضع لها بالاتفاق مع مديرها منهاجا حديثا ، وتولى هو تدريس قواعد النحو والصرف، وعلوم التوحيد ، والمنطق ، والمعانى ، والتاريخ الاسلامى ، والانشاء والمعاملات والعبادات من الفقه الحنفى ، حتى كانت دروسه تستغرق فى بعض الايام ساعات النهار كله

وقد دخل هذه المدرسة معلما ، ولكنه مالبث أن أصبح هاديا ومرشدا ، وقدوة حسنة فى العلم والدين والاخلاق ، وحكيما يهدى الى الحقيقة والى سواء السبيل

وكانت طريقته فى التدريس لا تعتمد على قراءة الشروح والحاشية على نحو ما كان يفعل مدرسو العلوم الدينية فى الجيل الماضى ، الذين كانوا يضيعون الوقت فى المناقشات اللفظية ، بل كان يكره قراءة الشروح والحواشى ، ويعتمد على تفسيره وتدريسه للمتون ، أو كان يلقى دروسه محاضرات يكتبها تلامذته أثناء القائه ، أو يأخذون منها مذكرات يعودون اليها . وكان يتوخى فى تدريسه الاسلوب المناسب لكل صف من صفوف الطلاب

وقد أحبه تلامذته ومريدوه ، واستفادوا من دروسه ولكنه لم يمكث فى هذه المدرسة غير ثلاث سنوات ، فقد خشيه حكام الترك فى ذلك الوقت بلبنان ، فأخذوا يضايقونه وعزلوا مدير المدرسة صديقه الشيخ احمد عباس ، وعينوا خلفا له .. فجاء هذا الخلف بايعاز من هؤلاء الحكام ، فغير وبدل فى منهاج المدرسة الذى وضعه الامام ، فاضطربت بها الحال ، فآثر رحمه الله

الاستقالة . ولم يمض غير قليل ، حتى استقالت فى مصر الوزارة النوبارية ، وتولت وزارة الرئيس مصطفى رياض باشا ، وصدر اذن الخديو توفيق بعودة الاستاذ الامام الى وطنه بمصر

عودته الى مصر

كان صدور اذن الخديو بعودته فى عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٨ م ، بعد ان انتهت مدة الحكم عليه بالنفى بثلاث سنوات أخرى ، ولكن الخديو توفيق لم يأذن له الا فى ذلك الحين . وقد كان فى هذه السنين الثلاث مجدا فى تربيته لنشء جديد بالمدرسة السلطانية ، وكانت دروسه عامرة بالهداية والارشاد فى كل علم من العلوم التى يدرسها كما ترى فى « رسالة التوحيد » . وكان يهدف الى بث الروح الوطنية والاصلاح الاسلامى بين طلابه ومريديه ، وخاصة بعد تعطيل جريدة « العروة الوثقى » وتخاذل المسلمين دون مساعدتها المساعدة الواجبة .. وقد قال للسيد جمال الدين الافغانى على اثر تعطيلها :

ـ ما دمنا قد اخفقنا فى عملنا هذا ، فأرى ان نترك السياسة ، ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد من المستعمرين ، ونختار من أهله عشرة غلمان ، أو أكثر من الاذكياء السليمى الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ، ونوجههم الى مقصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين ، فلا تمضى بضع سنين حتى يكون لدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الاصلاح . ومن امثال هؤلاء يرجى الفلاح !

فقال له السيد جمال الدين :

ـ انما انت مثبط .. نحن شرعنا فى العمل ، ولابد من المضى فيه ، مادمنا نرى له منفذا

وكان ذلك آخر عهد الامام بصحبة السيد فى باريس . ثم عاد الى بيروت ، وقضى بها أربع سنوات معلما لمريديه بداره أو فى بعض المساجد ، ثم مدرسا بالمدرسة السلطانية الى أن عاد الى مصر ، فتلقاه أصدقاؤه المخلصون بالترحاب والاجلال ، وأعرض عنه الجبناء وتجاهلوا وجوده ، فأخذ يدرس علوم الدين واللغة فى الازهر الشريف .. فخشى الخديو توفيق ان ينشر افكاره الاستقلالية بين الطلبة ، فأراد أن يشغله عن ذلك افعينه قاضيا بالمحاكم الاهلية . وكان يؤثر التعليم على القضاء بالرغم من أن الارتقاء فى القضاء أسرع وأجدى .. وقد مكث فى القضاء الى أن صار مستشارا فى محكمة الاستئناف .. ثم عين مفتيا للديار المصرية ، فأتاح له هذا المنصب أن يفيد الناس بعلمه وآرائه السديدة ، ثم اخذ فى ذلك الحين يدرس فى الازهر الشريف دروسا فى العلوم الدينية وعلوم الفلسفة واللغة

رسالتان فى التوحيد

وقد وضع عدة مؤلفات ورسائل منذ نفيه حتى وفاته ، منها رسالتان فى علم التوحيد :

الاولى ـ رسالة « الواردات فى سر التجليات » وكانت أولى مؤلفاته ، ونتيجة من نتائج دراسته الاولى على السيد جمال الدين الافغانى . وقد كتبها فى عام ١٢٩٠ الهجرى الموافق ١٨٧٣ الميلادى ، وعمره وقتئذ لا يزيد على ٢٤ سنة . وقد أتبع فيها الطريقة الصوفية الفلسفية واسلوبها فى اثبات الوجود لواجب الوجود مع اثبات كمال الصفات له تعالى ، كما تلقى ذلك على السيد جمال الدين حين مقامه بمصر . وقال فى مقدمة هذه الرسالة :

« .. فبينما أنا حول الرياض أحـوم اذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبا ، ولكن لم أجد من هى له طوية ، فحرت فى أمرى ، وأخذت أجيل فكـرى وكلما سألت أجابونى بأن الاشتغال بها حرام ، فتعجبت شـدة العجب .. وبينما أنا كـذلك اذ اشرقت شمس الحقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل ، والحق القائم ، استاذنا السيد جمال الدين الافغانى ، فرجوناه فى شىء من ذلك ، فأجاب والحمد لله على ذلك ، فنلنـا طرائف التحف ، فأومأ الينا بكليات هذه جزئياتها ، وآيات هذه بيناتها . وذلك فى فترة من الحكمة ، فكأنها غيث أرسل لاحياء تلك النعمة ، وسميتها « الواردات فى سر التجليات»

الثانية ـ « رسالة التوحيد » . وهى الرسـالة التى أملاها على طلبة المدرسة السلطانية ببيروت بمنفاه . وهى تتناول علم التوحيد ، وهداية دين التوحيـد وبيـان مزاياه ، ونشأة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوته لجميع طبقات البشر ، وبيان بلاغة القرآن ، وتحديه للعرب وغير العرب بأقصر سورة منه ، ولهذا آثر رحمه الله أن يسميها « رسالة التوحيد » ، ولم يقل « رسالة علم التوحيد » لتكون شاملة وافية لموضوعه وأهدافه

تقديم جديد

وقد قدمتها فى هذا الشهر للقراء تقديمـا جديدا ، لا يختلف فى شىء عن الاصل الذى وضعه الاستاذ الامام ، ولكنه يتفق وروح العصر فى عرض هذه الرسالة عرضا منسقا فى تبويب وتقسيم علمى مفيد . وقد سبق للمرحوم السيد محمد رشيد رضا أن طبعها عدة طبعات ، وعلق عليها تعليقات منذ نحو ستين عاما ، ولكننا وجدنا أنهـا بعد هذه الحقبة الطويلة تحتاج الى تحقيق وتعليق أوضح ؛

وأكثر تفسيرا لما أجمل فى هذه الرسالة النفيسة . وقد اثبتنا فى هامشها الضرورى مما علق به السيد رشيد أو صححه ، وحذفنا منه مالايحتاج اليه المثقفون فى هذا الجيل من تعليق نحوى أو لغوى ربما قد فات الامام ، أو كان فيه قولان ، وأثبتنا مثل هذا التصحيح فى أصل الرسالة ، وزدنا فى هامشها تعليقات جديدة يحتاج اليها القراء فى هذا الجيل

وقد اشتملت الرسالة ـ كما وضعها الامام ـ على عدة فصول معنونة بعدة عناوين ، فأبقينا العناوين على أصلها . ولكننا قسمنا هذه الفصول الى تسعة أبواب تقسيما يتناسب مع موضوعاتها ، ويوضح الغاية منها ، ويزيدها وضوحا وتفسيرا ، وييسر تصفحها للقراء

وغاية كاتب هذه السطور من هذه الخدمة أن يزداد انتشارها بين المسلمين فى كل جيل من الاجيال ، وفى كل قطر من الاقطار الاسلامية ، فقد كانت لها فوائدها الجمة حين وضعها ودرسها الاستاذ الامام فى الجيل الماضى ، حتى مدحها الكثيرون من علماء الاسلام فى مصر والشام وسائر بلاد المسلمين ، بل أن أحد المسيحيين الذين حضروا دروسها أو قرأوها فى ذلك الزمان قال لاحد تلامذة الامام : « اذا كان الاسلام هو كما بينته هذه الرسالة ، فأنا أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف دينى ، يقول : « ينبغى ان يكون الاسلام كذا وكذا . . » فرد عليه قائلا : « ان مؤلفها من أكابر علماء الازهر ، وهو يقرؤها فيه ، ولم ينكر أحد من علمائه شيئا منها ، ولا قال انها زادت فى الاسلام ماليس فيه » ! . وقد قيل أن أحد أدباء طرابلس بلبنان تمنى على مطران هذه المدينة أن تقرأ هذه الرسالة فى جميع المدارس المسيحية ، بعد حذف الكلام

عن نبوة محمد (ص) كى يقف ناشئة المسيحيين على سر الدين المطلق

وقد ترجمت « رسالة التوحيد » الى بعض اللغات الاجنبية من شرقية وغربية ، وعنى بها المستشرقون عناية كبيرة ، وطبعوها بلغتهم . وقال عنها العالم اللغوى المسيحى الشيخ سعيد الخورى الشرتونى ، صاحب معجم « أقرب الموارد » فى خطاب بعث به الى الاستاذ الامام :

« .. وردتنى هديتكم التى كشفتم بها عار العصر ، وجلبتم بها الفخر ، وهى مؤلفكم الفريد فى علم التوحيد ، الذى لاريب عندى أن الله يثيبكم عليه بكرامة الدنيا ، وسعادةالاخرى بعد طول العمر

« ولم أتعجب مما وقعت عليه من البدائع ، ورأيته من الجواهر ، لصدوره ممن كشف الله عن بصيرته وميزه بالاطلاع على أسرار المعقول والمنقول .. وما أظن ذوب العسل المصفى أحلى عندى منه . أقرؤه ولا أمل ، ثم أعيده متلذذا به .. فياشرف العصر الاسلامى بك ، ويافخر آدم بمثلك

« ما أنت فى كل ما تشرع فيه الا رجل جديد عندنا مع طول معاشرتنا ، وكثرة مخالطتنا ، فلا غرو أن يكون دماغك مادة لكل بديعة وفخرا لكل دقيقة .. والخلاصة أن مثلك اية من ايات الله ، تشهد بقدرتهوجوده ، وتصدع بأن بين الناس فروقا بعيدة المدى »

وقال الاستاذ العالم المرحوم محمد فريد وجدى تقريظا لهذه الرسالة :

« ان هذه الرسالة لايمكن شرحها الا فى عدة مجلدات ،

لانها تشير الى أكبر معارك الفلاسفة فى الاديان ، مع تقرير مايوافق الاسلام منها ، ورد مايخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة » .. ثم نقل منها الفصول الاولى فى مؤلفه : « دائرة معارف القرن العشرين » . واتبعها ببحث عن « مذهب وحدة الوجود » ـ ذلك المذهب الذى انتشر فى بلاد المسلمين فى القرن الثالث الهجرى وهو مذهب صوفى مؤداه : « ان لا موجود غير الله ، وكل ما فى الكون مما سواه ، ليس الا مظاهر وجوده وصفاته وأسمائه ، وهو الاول والآخر ، والظاهر والباطن» وقد أشار الاستاذ الامام فى رسالته الى هذا المذهب

وقد حرص الاستاذ الامام فى « رسالة التوحيد » على الا يصرح بالخلاف بين المذاهب الدينية ، ولا بين الدين الاسلامى وغيره من الاديان ، لانه لم ير من الحكمة ، الخوض فى مطاعن الطاعنين ، بل كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد ، وكان من الكياسة بحيث لايسمع منه أحد كلمة تسوءه أو تشير الى تخطئته ، سواء كان سنيا أم شيعيا ، مسلما ام مسيحيا ، ولكنه كان يغضب ويحتد ، وقد يمرض من الغضب حينما يرى حال المسلمين من التهاون بشعائر الاسلام أو التعاون مع الظلمة والمستعمرين

مقالان ليسا من الرسالة

ولقد حدث ذات ليلة أنه فكر فى حال المسلمين ، وما أصابهم من الشقاء والتهاون والغفلة عن أمور دينهم ، واطال التفكير فى ذلك ، فاعتورته آلام عصبية كانت تعتاده كلما فكر فى هذه الحال ، حتى خطر له أن ينزل ليلا ، ويذهب الى نوادى اللاهين ، وأماكن الفاسقين ، ويصيح بهم :

« ايها الناس .. ماذا رأيتم فى دينكم حتى تركتموه؟!»

وقد طال تفكيره وحـــزنه فى تلك الليلة ، ثم لم يجد ما يسكن آلامه الا الكتابة ، فكتب مقالين سننشرهما فى الكتاب الخامس من هذه المجموعة الاسلامية من تراثه وهما: « انتشار الاســـلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التــاريخ واسباب ذلك » وما يليه وهو : « ايراد سهل الايراد »

وقد الحق المرحوم السيد رشيد رضا هذين المقالين فى طبعاته لرسالة التوحيد ، وهما ليسا منهـــا . ولهذا راينا نشرهما فى الكتاب الخامس الذى سنصدره قريبا بعنوان « المسلمون والاسلام » للاستاذ الامام

وقد كان يهدف فى « رسالة التوحيد » الى ان تكون وسيلة لمعرفة الله عن طريق العلم والتفكير ، وان يفهم القراء علم العقائد بعيدا عن الجدل والخلاف بين أهل المذاهب ، ويتبين المسلمون حقيقة دينهم ، وجوهر تعاليمه ، وما ينبغى عليهم من التمسك بشعائره والحرص على العمل بأوامره ونواهيه ، والسير على هديه الذى يوقظ فى نفوسهم حب الخير والدفاع عن كرامتهم وانسانيتهم ويزيدهم ايمانا بالله وانبيائه ورسله وما انزل عليهم من وحى وبيان يهدى الى صراط مستقيم فينصرفون بذلك عن اللهو والفساد ، ويخلعون عن اعناقهم نير الذل والاستعباد ، ويعيشون فى بلادهم احرارا كرماء

طاهر الطناحى

مقدمة الرسالة

بقلم الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

وبعد ، فلما كنت فى بيروت من أعمال سورية ، أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ الهجرية (١) . ودعيت فى سنة ١٣٠٣ الى تدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها كان علم التوحيد ، رأيت ان المختصرات فى هذا الفن ربما لاتأتى على الغرض من افادة التلامذة ، والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم ، فرأيت من الاليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم ، فكانت أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها الى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الاولى فى أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله ، تمهيد مقدمات ، وسير منها الى المطالب ، من غير نظر الا الى صحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد ، غير ان تلك الامالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة ولم استبق لنفسى منها شيئا وعرض

---

(١) سنة ١٢٩٩ هـ ، تبدأ بيوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٨١ م وتنتهى فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، فهو يشير الى حوادث تلك السنة ١٨٨٢ — و ١٣٠٣ هـ الموافقة ١٨٨٥ م

بعد ذلك ما استقدمني الى مصر . وكان من تقدير الله أن اشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، الى أن خطر لى من مدة أشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسي ، ويصبو اليه عقلي وحسي ، وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد ، علما مني أنه ركن العلم الشديد ،فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الامل ، وعزمت أن أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الى ، ما تلقاه بين يدي ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة اليه في انشاء ما أرى التعويل عليه . وذكرت لاخي (١) فأخبرني أنه نسخ ما أملي على الفرقة الاولى فطلبته وقرأته فاذا هو قريب مما احب ، قد يحتاج اليه القاصر ، وربما لا يستغني عنه الكاتر ، على الختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك في العقائد مسلك السلف ، ولم يعب في سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد مطليه عن أعاصير المشاغب ، لكنى وجدت فيه ايجازا في بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع واغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ماأغفل وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله في نشره ، راجيا أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال امره ، او يغض من قدره . فما من احد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان ..

والله وحده ولي الامر وهو المستعان

---

(١) هو شقيقه حمودة عبده ، وكان تلميذا فى المدرسة السلطانية لهذا العهد

الفصل الأول

مقدمات
في تاريخ علم التوحيد

علم التوحيد

التوحيد : علم يُبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يُثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لاثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد لاشريك له . وسُمِّى هـذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز .. وسيأتى بيانه ..

وقد يسمى علم الكلام ، اما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هى أن كلام الله

المتلو حادث أو قديم ، واما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وان كان أصلا لما يأتى بعدها ، واما لأنه فى بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وسمى الكلام بدل المنطق للتفرقة بينهما

***

هذا النوع من العلم ـ علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوات ـ كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك .. لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون .. بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض .

وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل : نتائجه ومقدماته .. فكان جل ما فى علوم الكلام تأويلا وتفسيرا ، وادهاشا بالمعجزات ، أو الهاء بالخيالات .. يعلم ذلك من له المام بأحوال الأمم قبل البعثة الاسلامية

منهج القرآن فى التوحيد

جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه .. فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة .. بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وقصّ علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم .. لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى ، وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما

فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه ، حتى انه فى سياق قصص أحوال الســابقين كان يقرر للخلق سنّة لا تتغيَّر ، وقاعدة لا تتبدل ، فقال : « سنَّة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا » . وقال : « ان الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم » . و « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » . واعتضد بالدليــل حتى فى باب الأدب فقال : « ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم » وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل ..

وتقرر بين المسلمين كافة ــ الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ــ أن من قضايا الدين ما لايمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل ، كالعلم بوجود الله وبقــدرته على ارسال الرسل ، وعلمه بما يوحَى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم ،

فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات ــ وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ــ فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم أو فى الجنس، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر . وعزا اليه أمورا يوجد ما يشبهها فى الانسان ، كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ، ثم أفاض فى القضاء السابق وفى الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين ، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه فى هذه المقدمة

فاعتبار حكم العقل، مع ورود أمثال هذه المتشابهات فى النقل ، أفسح مجالا للناظرين ، خصوصا ان دعوة الدين الى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه ، بلا غلو فى التجريد ، ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو المرجع فى

الحيرة ، والسراج فى ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء . ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل ردّ اليهما .. وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة . وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد ، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة (١) الثالث وأفضى الى قتله .. هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن قائما على صراطه .. « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وفتح للناس

(١) يعنى بالخليفة الثالث عثمان بن عفان الذى وقعت الفتنة فى عهده

باب لتعدى الحدود التى حدّها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم . وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم . وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم، فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودى أسلم وغلا فى حب علىّ كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه (١)

وأخذ يدعو الى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان .. فنفاه فذهب الى البصرة وبث فيها فتنته ، فأخرج منها . فذهب الى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة ، فنفى منها .. فذهب الى الشام فلم يجد فيها ما يريد ، فذهب الى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته ، الى أن كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه فى عهد

---

(١) ان ابن سبأ فعل ما فعل بغضا فى الاسلام لا حبا فى على ، فاسلامه كان خديعة . وله نظراء فى ذلك من اليهود ، مثلهم بعض مجوس الفرس الذين تظاهروا بالاسلام ، وتستروا بالتشيع لعلى ولآل البيت عليهم السلام : كلهم كانوا يقصدون افساد الاسلام وازالة ملكه بالتفريق بين أهله ، وأشار المؤلف الى ذلك فيما يأتى

على ، فنفاه الى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد تصدّع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وأخذت الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا ، الى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيرا من المسلمين ، وانتشرت فارّتهم فى أطراف البلاد ، ولم يكفّوا عن اشعال الفتن، وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب (١) وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليًّا ،

---

(١) قال السيد محمد رشيد رضا فى طبعته تعليقا على ذلك : انه يعنى بهذه البقية ، الاباضية الذين فى طرابلس الغرب وصحراء ←

أو بعض ذريته الى مقام الألوهية أو ما يقرب منه (١) وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد

الاشتغال بعلم التوحيد وظهور المعتزلة

غير أن شيئا من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع . وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس ، والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين ، والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام ، وآن

الجزائر من افريقية : وفى عمان من جزيرة العرب . ولكن الاباضية يتبرأون من الخوارج الذين يكفرون من يخالفهم كالصفرية والازارقة . ويفرقون بالامامة ، ولكن لهم تشديدا فى قاعدة الولاية والبراءة فيتولون الشيخين وجميع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس على عثمان وما انكر عليه الصحابة « رض » وفتنة على ومعاوية ويقولون ان عليا هو الامام الحق ، وان معاوية كان باغيا بخروجه عليه . ولذلك يخطئون عليا فى قبول التحكيم فى الامر ، وهو يعلم انه صاحب الحق ولهم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثة أقوال: البراءة منهم ، والوقف فيهم ، وثالثها الولاية لهم كسائر الصحابة ، وهو قول أهل السنة . وهم فى تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الاشاعرة والمعتزلة . واما العمل بالاوامر والنواهى فهم أشد الفرق الاسلامية اذعانا وطاعة لها ، كالوهابية من أهل السنة لا يكاد يوجد فى بلادهما تارك صلاة أو مانع زكاة او مجاهر بكبيرة

(١) منهم الذين رفعوه الى الالوهية وحده ، ومنهم من جعلوها موروثة فى بعض ذريته وهم الباطنية ، ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بعض أفراد ذريته : وغلوا فيهم على درجات مختلفة

لهم أن يشتغلوا فى أصـــول العقائد والأحكام ، بما هداهم اليه سير القرآن ، اشتغالا يحرص فيه على النقل ، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر . ووجد من أهل الاخلاص من انتدب للنظر فى العلم والقيام بفريضـــة التعليـــم ، ومن أشـــهرهم الحسن البصرى (١) ، فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة ، يجتمع اليه الطـــالبون من كل صـــوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع . وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن، واعتمـــد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رءوس المشاقين ، تعلو بين المسلمين

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة

---

(١) الحسن البصرى «٢٢ ـ ١١٠ هـ» ولد بالمدينة ثم استقر بالبصرة وتوفى فيها . كان ورعا تقيا متفقها، أثر فى الحـركة الدينيـة فى صدر الاسلام تأثيرا كبيرا

من ارتكب الكبيرة ولم يتب . اختلف فيها واصل بن عطاء ، وأستاذه الحسن البصرى ، واعتزله يعلّم أصولا لم يكن أخذها عنه .. غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن — على قول — كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته . وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية ، كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس الى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ، ثم يذهب كل الى ما شاء ، سوى أن عمر بن عبد العزيز أمَر الزهرى بتدوين ما وصل اليه من الحديث ، وهو أول من جمع الحديث

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها عنها ، والى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الأحكام الدينية ، حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى — على ما سبق بيانه — ثم غالى آخرون — وهم الأقلون — فمحوها محوا ، وخالفوا فى

ذلك طريقة الكتاب عنادا للأولين ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد ، كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى

تفرقت السبل بأتباع واصل (١) ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل ، وما كان سرابا فى نظر الوهم . فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم

---

(١) هو واصل بن عطاء المعتزال تلميذ الحسن البصرى السالف الذكر ولد بالمدينة وانتقل الى البصرة وهو زعيم المعتزلة (٨٠ - ١٣١ هـ) سمى الغزال لتردده على سوق الغزل وتصدقه فيها على الفقيرات .

وحواشيهم .. فعلا أمر كثير منهم ، وهم ليسوا من الدين فى شىء . وكان فيهم المانوية ، واليزدية ، ومن لا دين له ، وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ، ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم .. فظهر الالحاد ، وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وابطال مزاعمهم

***

فيما حوالى هذا العهد ، كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه .. وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أوأزليته ، وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول أو صرّح بالأزليـة عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى. وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعـدى القوم

حدود الدين باسم الدين (١)

على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل ، وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع : ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مسّ بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه . وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول ، أو الدهريين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم بالاسلام وأفرطوا فى التأويل .. وحوّلوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب ، بعد الخطأ عن الصواب ، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين ، وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة

الاشعرى ومذاهب الفلاسفة

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء

(١) فى هذا الكتاب بابان : احدهما عن الوحى والثانى عن القرآن . -

الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا، وكانت الأيام بينهم دولا .. ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ، الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرّر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبى بكر الباقلانى وامام الحرمين والاسفرايني وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة .. فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر . ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين الا فئات قليلة فى أطراف البلاد الاسلامية

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى ، بعد تقريرهم

(١) هو ابو الحسن على الاشعرى الفقيه من مؤسسى علم الكلام ولد سنة ٢٧٠ وقيل : ٢٦٠ وتوفى سنة ٣٣٠ ونيف وقيل : ٣٢٤ ناصر أهل السنة على المعتزلة ، وله مؤلفات عديدة منها : « الابانة من أصول الديانة » و « اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع »

ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان .. ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول ، ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالى (١) والامام الرازى ، ومن أخذ مأخذهما ، فخالفوهم فى ذلك .. وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها ، فلا وجه للحجر فى الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ماشاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكتنفهم بحمايته ، ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة

---

(١) هو أبو حامد محمد الغزالى، أو الغزالى بتشديد الزاى ، ولد فى طوس سنة ٤٥١ هـ وتوفى سنة ٥٠٥ هـ ـ أما الرازى ، فالمراد به فخرالدين الرازى ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفى سنة ٦٠٦ هـ الفقيه المحدث له كتاب « أساس التقديس » فى علم الكلام وكلمة « الرازى » اسم لستة من علماء الاسلام

وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا . وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق ، أو يضع العقاب فى سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ما صحّ من قوله عليه السلام : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وبعد ما سنّ لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء ..

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم :

الأول : الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان، خصوصا أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادىء الأمر .

الثانى : الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى

كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم

وجاء الغزالى ، ومن على طريقته ، فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات ، وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض، ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام ، وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مبانى الدين واشتدوا فى نقده . وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامى من سعيهم

هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين ، كما تراه فى كتب البيضاوى (١) والعضد وغيرهما ، وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا ، والذهاب بمقدماته

(١) البيضاوى هو عبدالله بن عمر احد مفسرى القرآن . تولى القضاء . وتوفى سنة ٦٨١ هـ فى تبريز ، وهو من علماء اهل السنة

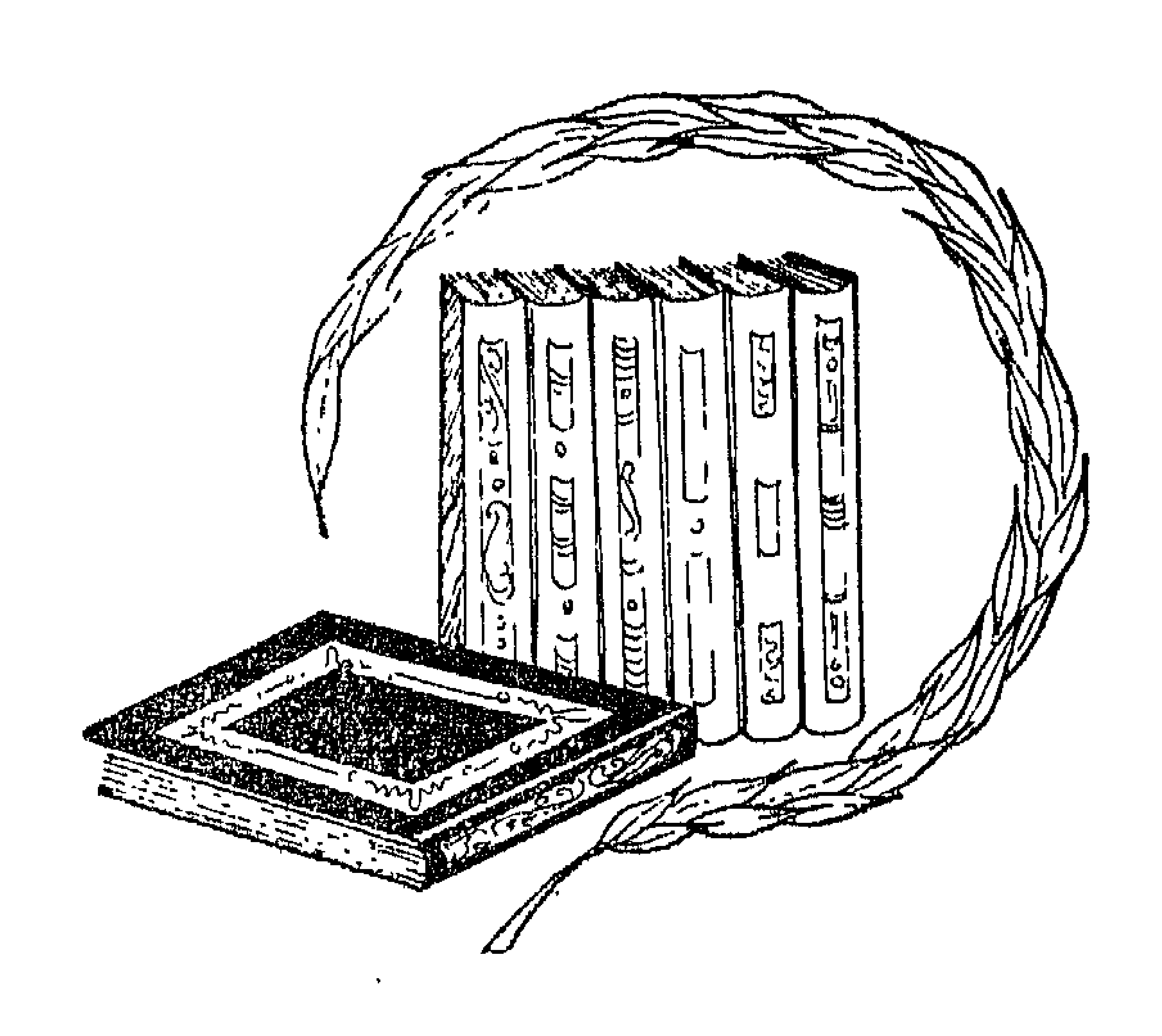
ومباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر .. فوقف العلم عن التقديم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الاسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين الا تحاور فى الألفاظ أو تناظر فى الأساليب.. على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله .. غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير .. وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر

وهذا اسلام . والدين من وراء ما يتوهمون ، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون .. ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ .. شر عظيم ، وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية الأمر أيدى المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ! ..



الاسلام دين توحيد فى العقائد

والذى علينا اعتقاده ان الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد ، لا دين تفريق فى القواعد . العقل من أشد أعوانه ، والنقـــل من أقوى أركانه . وما وراء ذلك فنزعات شياطين ، وشهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطله

الغاية من هذا العلم ، القيام بفرض مجمَع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل، لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا اليه الكتاب . فقد أمر بالنظر ، واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهــر الكون ، وما يمكن النفوذ اليه من دقائقــه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخـــذ بما عليه آباؤهم ،

وتبشيــع ما كانوا عليــه من ذلك واستتبــاعه لهدم معتقداتهم ، وامحاء وجودهم الملى .. وحق ما قال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار ... فهو خصلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل بحال الانسان



الفصل الثانى

أقسام العلوم

أقسام المعلوم

يقسّمون المعلوم الى ثلاثة أقسام : مستحيل لذاته ، وممكن لذاته ، وواجب لذاته (١) ، ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته ، وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده . وقد يعرض له الوجوب والاستحالة

(١) قال السيد محمد رشيد رضا : هذه القسمة عقلية وهى للحصر ، لأن ما يتعلق به العلم اما ثابت قطعا لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب ، واما ضده وهو المستحيل، واما واسطة بينهما وهو ما لاتقتضى ذاته الثبوت ولاالانتفاء، بل يجوز لها الأمران بحسب العلل وهو الممكن . فمعنى كون الشىء ممكنا أو مستحيلا أو واجبا لذاته، هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته .. أى ان ذاته اذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن الا كذلك ، والمراد بالامكان والوجوب والاستحالة ماكان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة، فمثال المستحيل : اجتماع النقيضين، ككون الشىء موجودا معدوما فى آن واحد اى موجودا غير موجود فهذا معلوم — أى متعلق للعلم — يجزم العقل بعدمه أى عدم تحققه لذاته،أى ان ذاته لا يمكن ان تكون ثابتة ، وليس منه مشى الانسان على الماء ، أو طيرانه فى الهواء بلا أداة للطيران .. وانما هذا مستحيل عادة، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للأربعة فانك لا يمكنك أن تتصور العدم المحض ولا كون الاربعة ليست زوجا ، ومثال الممكن ظاهر . فان جميع هذه الموجودات التى ندركها بحواسنا ممكنة الوجود ، كما يعلم مما يأتى فى الرسالة

لغيره — واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز ، فان المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه ، فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود ، فان العدم من لوازم ماهيته (١) من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها ،

---

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشىء هو هو ، ونوضح ذلك بقولنا ان ماهية الشىء ترادف حقيقته فى الجملة ، مثال ذلك : أن مايتصوره الذهن من معنى الانسانية الكلى الذى يوجد فى كل انسان غير مصاب بعلة ، ككونه حيوانا ناطقا عاقلا يسمى ماهية الانسان وحقيقته ، ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار .. فما يتعلق فى الذهن من معنى الشىء الذى تتقوم به ذاته ويجاب به اذا سئل عنه بما هو ذلك الشىء ؟ يسمى ماهية ، وانما يسمى حقيقة أو ذاتا باعتبار تحققه فى الواقع . ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة ، ولازم الشىء ما لا ينفك عنه كلزوم الانقسام الى متساويين للزوج

وكلمة الماهية ، وتفسيرها ، والسؤال عن الشىء بما هو ، وما خصوه به واشترطوه فى جوابه ، كل ذلك من اصطلاح علم المنطق لا من أصل اللغة .. فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هو كذا ، وقد يجيبون عنه بأى صفة تميز الشىء المسئول عنه عن غيره

وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها (١) بالبداهة.. فالمستحيل لايوجد فهو ليس بموجود قطعا ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه . فهو ليس بموجود لا فى الخارج ولا فى الذهن

احكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء . فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة (٢)

ومن أحكامه : أنه ان وجد يكون حادثا لأنه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب ، فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة ، وهو ابطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها

(١) قال المؤلف الاستاذ الامام : من القضايا التى قياساتها معها لأن سلب اللازم انما يكون بسلب الملزوم، وهو كون الماهية هى، أى فهو كسلب الانقسام الى متساويين عن عدد الزوج وهو نفى لكونه زوجا فكأنك قلت : انه زوج غير زوج

(٢) أى لانه جمع بين النقيضين ، اذ معناه أنهما متساويان غير متساويين فى ان واحد ، فهو من القضايا التى قياساتها معها

فيؤدى الى خلاف المفروض ، والثانى كذلك والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود (١) فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح.. وهو مما لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه .. فيكون مسبوقا بالعدم فى مرتبة وجود السبب فيكون حادثا .. اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم ، فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج فى عدمه الى سبب وجودى لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتاج الى ايجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببا فى بقائه ، أما فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ضرورة ، لأن العدم لا يكون مصدرا للوجود ،

---

(١) اى ان وجوده قبل سببه يؤدى الى الجمع بين النقيضين ، وهو كونه اى الممكن محتاجا فى وجوده الى السبب غير محتاج اليه . وقوله: والثانى كذلك ظاهر ، فان وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضى أن ما فرض سببا لا يكون سببا ، وأن الممكن محتاج الى السبب غير محتاج اليه وهو تناقض ظاهر ، وقوله : والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود . مثاله : أن يوجد الاب والابن اى يولدا فى وقت واحد. ومن البديهى أن الشخصين اللذين يولدان فى وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا

فالموجود ان حدث فانما يكون حدوثه بايجاد .. وذلك كله بديهى

كما يحتاج الممكن الى السبب فى وجوده ابتداء يحتاج اليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ، ولا يرجح لها الوجود على العدم الا للسبب الخارجي الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هى ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجا الى مرجح الوجود على العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا : منشأ الايجاد ومعطى الوجود ، وهو الذى يعبِّر عنه بالموجد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ، وبالفاعل الحقيقى ، ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها . وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيىء الممكن لقبول الايجاد من موجده . وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه .. ومن

هذا القبيل ، وجود البناء فانه شرط فى وجود البيت ، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البنـاء واهب الوجود للبيت ، وانما حركات يديه وحركات ذهنـه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ..

وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء ، وبين استفادته الوجود من شيء .. فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم ، كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى .. فان الأولى ليست واهبـة الوجود للثانية ، والا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الأولى ، وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه ، وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به .. فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات .. فهذه الكائنات اما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة .. لا سبيل

الى الأولى لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته .. [1] وما بالذات لايزول ، فلا يطرأ عليه العدم ، ولا يسبقه كما سيجىء فى أحكام الواجب فهى ممكنة ، فالممكن موجود قطعا

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها ، فاما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشىء على نفسه ، واما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشىء سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الأول ، ولنفسه فقط ان فرض أول ، وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والمستحيل لايوجد فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات

---

(١) قوله « له الوجود من ذاته» جملة هى خبر أن.

الموجودة موجدا واجب الوجود (١)

وأيضـا الممكنات الموجودة سواء كاتت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود اما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل ، لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ، فتعين أن يكون مصـدره سواها وهو الواجب بالضرورة



---

(١) هذه مقـدمة ونتيجة على طريقة « علم المنطق »
وقد سبق ان قال فى الفصل الاول ان علم الكلام أوعلم التوحيد أشبه بالمنطق فى طرق الاستدلال بالعقـل لا بالنقل عند أهل النظر

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفى التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديما أزليا لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا ، والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم ، وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال .. فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبا واجبا وهو تناقض محال . ومن أحكامه أن لايطرأ عليه عدم ، والا لزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشىء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا ، اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته .. وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره . وقد سبق أن الواجب ماكان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب

لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا انه لذاته من حيث هى ذاته ، ولأنه مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه

ونفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية [1] أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فان الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج والا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

وكما لايكون الواجب مركبا لايكون قابلا للقسمة فى احد الامتدادات الثلاثة أى لايكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول ، وصار الى وجودات متعددة وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا لعدم أو تركا وكلاهما محال

---

(١) قوله « حقيقة عقلية » مبنى على القول بها على سبيل التوضيح والا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له، وقد نفاها المؤلف فى الدرس حينما كان يقوم بتدريس هذه الرسالة بالازهر بعد عودته من بيروت وقد أثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة الا ادراكها ، أى الصور التى ينتزعها الذهن من الوجود الخارجى ، وبين فى درس المنطق لتلامذته بطلان مذهب أفلاطون فى الوجود العقلى ومذهب أرسطو فى كون الصور الذهنية هى حقائق هذه الموجودات الخارجية

صفة الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ، يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود ، تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره ، والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ..

ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر . وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقرونا بالنظام ، والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا كان فى النوع أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام ، كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها ، وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدركل وجود ممكن، وظاهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها .. ولأنه يستتبع من الصفات الوجودية مايلائم تلك المرتبة العليا

وكل ما تصوره العقل كمالا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له ، وجب أن يثبت له . وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه ، يعدُّ من كمال الوجود . فيجب أن يكون ذلك ثابتا له .. فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له ..

فمما يجب أن يكون له ، صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والارادة . وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة ، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر

النظام وقاموس الحكمة (١) وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة ، فهى كمال وجودى ويمكن أن يتصف بها الواجب ، وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به ، وجب أن يثبت له ..

فواجب الوجود حى وان باينت حياته حياة الممكنات فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجودا . وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه .. فهل لو كان فاقدا للحياة يعطيها ؟ .. فالحياة له كما أنه مصدرها .. !



(١) دليل فيه اضمار تقديره : وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودى فالحياة كمال وجودى

صفة العلم

ومما يجب له صفة العلم . ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه ، لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود . ويمكن (١) أن تكون للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال . ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده (٢)

---

(١) كتب الامام فى حاشية نسخة الدرس هنا : أى بالامكان العام

(٢) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لا يمكنه أن يهب كمالا بالضرورة ، وأما الصفات التى لا تعد كمالا ولا نقصا وهى من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هذا القبيل « فيمكن » هبتها مع فقدها

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده على الوجودات .. فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه ، والا تصور العقل علما أشمل ، وهو انما يكون لوجود أكمل ، وهو محال

ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر الى شىء ما وراء ذاته : فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ، ووضع كل شىء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده وبقائه .. وذلك ظاهر لجلىء النظر بما يشاهد فى الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على

قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عمله أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية .. كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها ، وايتائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها ، وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما يلائمه . فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة.. ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق ، وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق ، وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له . فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته ــ متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله ــ الى

الأيدى والأرجل والأعين والأنوف والآذان وبقيةالمشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ، ويقيه من العوادى عليه ، وحاجته الى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع

هو الذى يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا ، وأنها متى كبرت تلد أجراء(١) متعددة فيمنحها أطباء كثيرة ، وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه . وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم ، وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث ..

هذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء ؟ .. الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ ..

---

(١) الاجراء جمع: جرو ، والاطباء جمع طبى بالكسر : وهى حلمات الضرع

هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالمصادفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام ؟ .. وواضـعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ؟ ..

كلا .. بل مبدع ذلك كله هو من لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم



صفة الإرادة

مما يجب لواجب الوجود وهو الله : الارادة . وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة

بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم ، وأن ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه انما يفعل على حسب علمه .. ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال فى جانب الواجب .. فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم ، وعلى حسب تردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

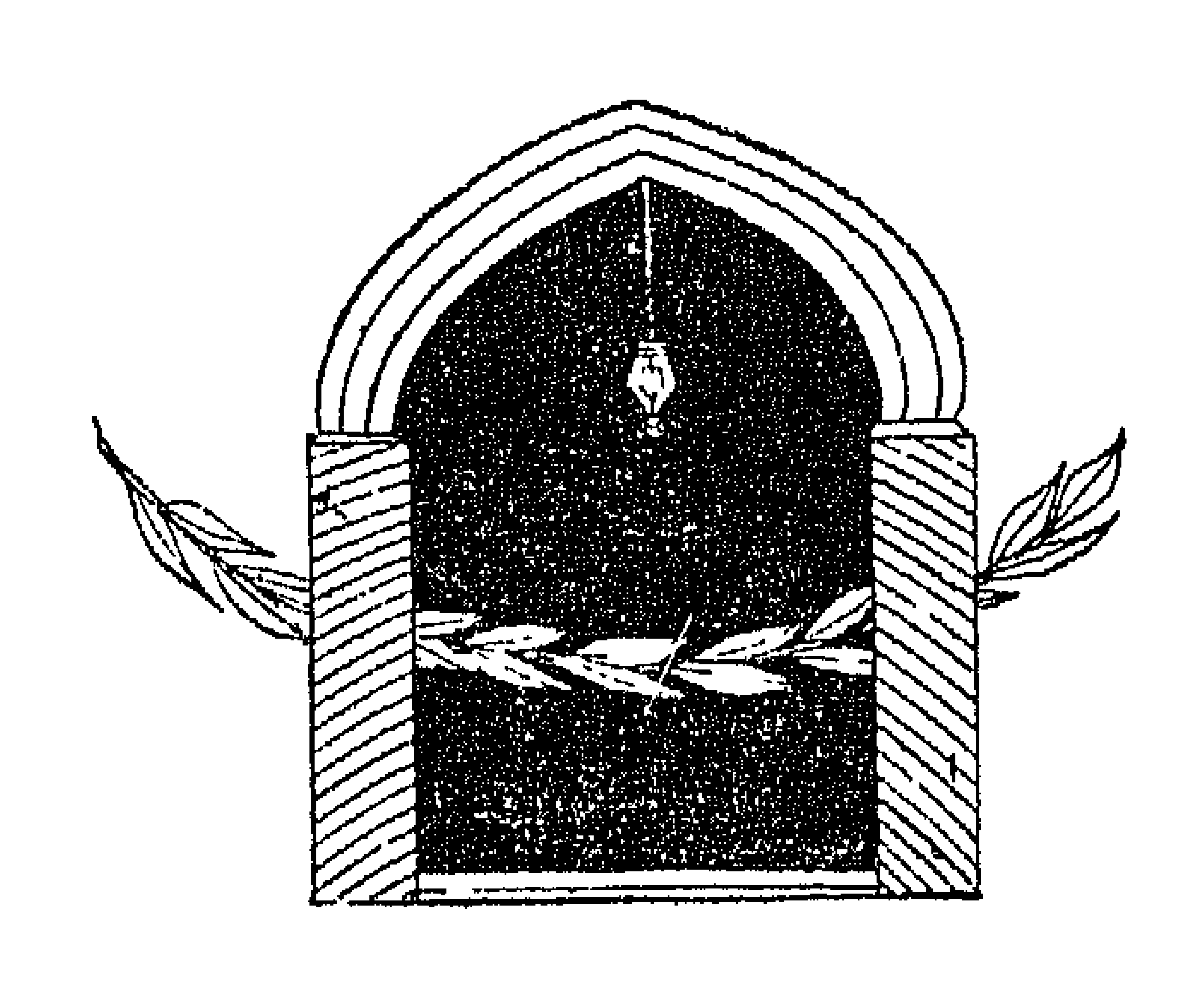
القدرة والاختيار

ومما يجب له ، القدرة . وهى صـفة بها الايجاد والاعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته، فلا ريب يكون قادرا بالبداهة ، لأن فعـل العالم المريد فيمـا علم وأراد ، انما يكون بسلطة على الفعل . ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

وثبوت صـفات العلم والارادة والقـدرة يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، اذ لا معنى له الا اصـدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ، ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاسـتلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة . وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعه لتوجه اليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر لوجـود الواجب الذى هو

أكمل الوجودات وأرفعها . فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكوّن ، واتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع

وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل . والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هـذا النمط الرفيع : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟ .. » وهـذا هو معنى قولهم : ان أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولـكنها تنزه عن العبث . ويستحيـل أن تخلو من الحكم ، وان خفى شىء من حكمتها عن الأنظار



صفة الوحدة

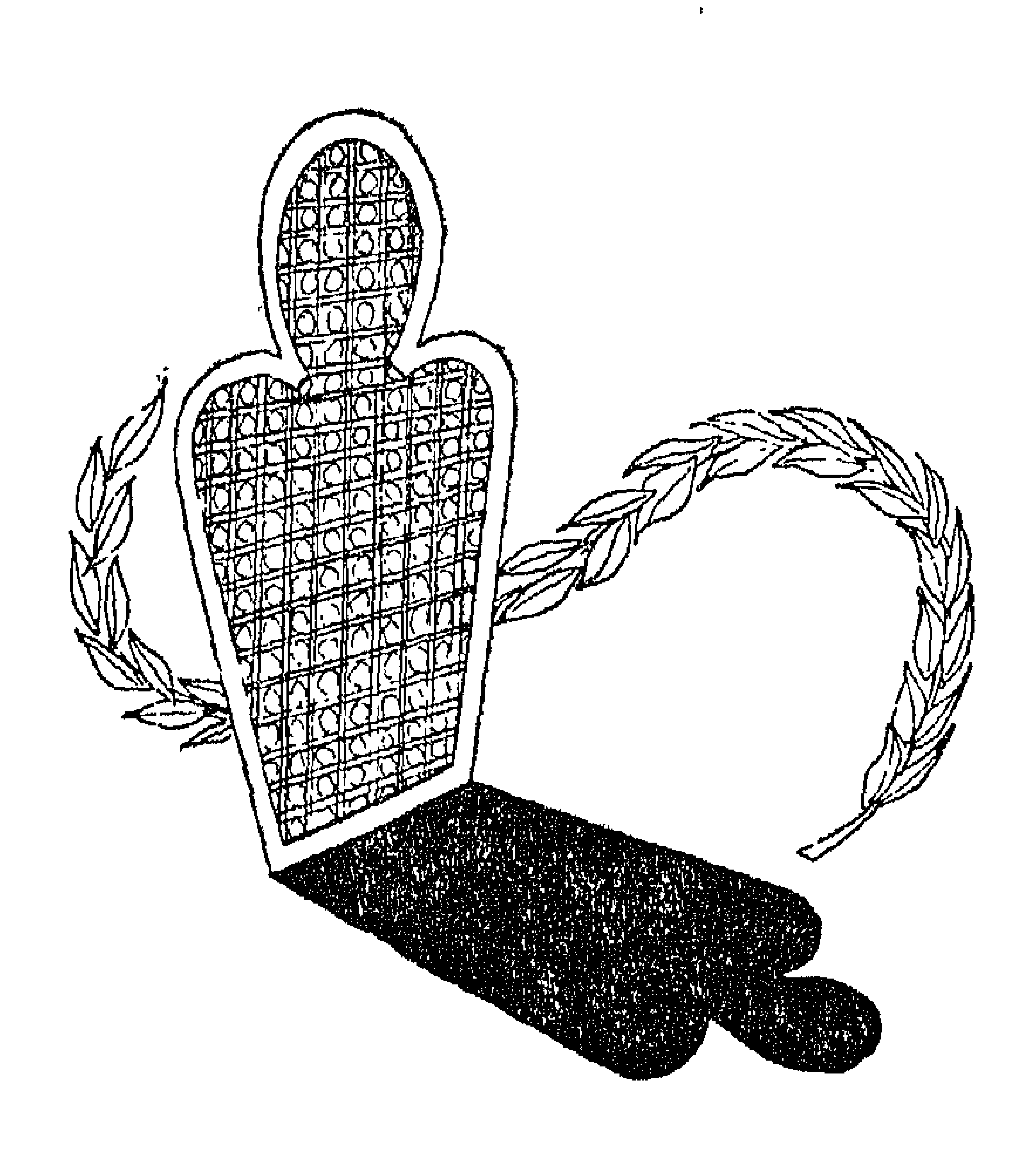
ومما يجب له صــفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجا وعقلا. وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لايساويه فى صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يســاوى واجب الوجود فى مرتبــة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات

وأما الوحدة فى الوجود ، وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات ، فهى ثابتة لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعَيُّن يخالف تعَيُّن الآخر بالضرورة ، والا لم يتحصــل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعيُّنات اختلفت الصفات الثابتة .. للذوات المتعينة ، لأن الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعيُّن ما ثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والارادة باختــلاف الذوات

الواجبة ، اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الأخرى وارادتها ، ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعيشنها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لأن علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته ، لا لأمر خارج . فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما ، وقد قدمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته ، فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وارادتهم ، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة الممكنات . فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وارادته ، ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن وجود كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم

.ں يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال..
فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا . لكن الفساد ممتنع
بالبداهة . فهو جل شأنه واحـــد فى ذاته وصـــفاته ،
لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله



صفات الله السمعية

التى يجب الايمان بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الايمان بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد اليه البرهان ، وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لايهتدى اليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات : صفة الكلام . فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر

الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شئونه قديما بقدمه (١)

(١) قال السيد محمد رشيد رضا تعليقا على ذلك :

ان الله تعالى جعل للناس طرقا عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسبا فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم ، واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم ، فالعلم هو القوة أو الصفة التى تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب ، وفيها قوة أخرى تتصرف بها فى المعلومات وتصورها بصور قابلة لاعلام قابل العلم بها ، فبها يتمكن الانسان من افادة غيره ما شاء من علمه وهى صفة الكلام ، فما كان منه فى النفس يسمى كلاما نفسيا ويعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت فى نفسى كذا ، وحدثتنى نفسى ، وقال عمر يوم السقيفة : زورت فى نفسى كلاما .. وما تحصل به الافادة والاعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما ويوجه الى من يراد اعلامه به فيعلمه يسمى كلاما لفظيا ، وقد استعير لفظ العلم الذى يستعمله البشر فى أنفسهم للعلم الآلهى المحيط بكل شىء ، واستعير لفظ الكلام للشأن الالهى الذى به يوحى الله الى ملائكته ورسله ما شاء من العلم ويكلم من شاء وحيا من وراء حجاب ، فقيل : ان الله كلاما هو صفة له أى شأن من شئونه هو مصدر الوحى وافادة العلم للانبياء والملائكة ، وسمى مايوحيه اليهم كلاما أيضا . وليس فى اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل فى كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسى عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم ، فالكلام النفسى صورة للعلم الذاتى فى النفس كما أن العلم صورة للمعلوم فيها . ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه ، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل مافى علمه ويكشف ماشاء من علمه لمن شاء من خلقه وهو التكليم . كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شىء تعلق انكشاف وادراك من غير سبق خفاء ، فالكلام كمال وجودى محض لو لم يكن الخالق متصفا به لكان ناقصا (سبحانه) بفقده فى الازل له ، ولكان غيره من الموجودات كالانسان أكمل منه على ما سبق بيانه فى صفة الحياة تعالى الله عن ذلك . فالكلام هو الوصف الفاصل بين الانسان والحيوان ، وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بنى اسرائيل بقوله (أفلا يرون الا يرجع اليهم قولا ✱ ولايملك لهم ضرا ولا نفعا) وانما الاله الحق هو الذى يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته ، ولو خلق الله تعالى فى نفس الملك أو النبى علما بما أراد اعلامه به لم يكن صادرا عن كلامه النفسى ومرآة له لما صح أن

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر: وهي ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع : وهي مابه تنكشف

يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى ، كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التى لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاما له . وكذلك الكسبية بالاولى

هذا وان لايحاء كلامه تعالى الى الملائكة صورة روحية غير الصورة التى يوحيها الملك للرسول من البشر، والرسول يبلغها للناس بصورة أخرى هى كلامهم اللفظى ، والمعنى للكل الذى هو العلم الذى أراد الله تعالى اظهارهم عليه واحد لا يتغير باختلاف صوره ، ولا يصح أن يعزى الى غيره . فالشاعر الذى علم أن كل شىء ماخلا الله باطل (لأنه لا وجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وأن كل نعيم فى الدنيا زائل ، وتمثل له هذا المعنى بقوله :

الا كل شىء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قد نطق بهذا البيت بلفظه ، بعد أن تمثل فى نفسه ، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرنا بعد قرن ، وكلهم يعزونه اليه وأنه من كلامه ، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفى أنه كلام له قيل منذ بضعة عشر قرنا .. فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذى أوحاه الى محمد رسوله (ص) صادرا عن كلامه النفسى ، وأن حدوث الوحي به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالالسنة وكتابته وطبعه فى المصاحف قرنا بعد قرن لا ينافى كونه هو كلامه وأنه قديم بقدمه ، على أن السلف لم يقولوا انه قديم لأن نص الشارع لم يرد به ، وقد أغلظوا النكير على من قالوا انه مخلوق وحادث بشبهة حدوث ايحائه وتنزيله وتلاوته ، لأن الحامل لهم عليه انكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام اثباتها لتعدد القدماء وهي نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها فى صفات الله تعالى وكلامه المنزل ، غلوا فى التنزيه انتهى بهم الى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود ، وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ، وانما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ، ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل . وقد اهتدى البشر الى بيان ما فى أنفسهم من الكلام لمن يريدون اعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الاميال بلا صوت وذلك ما يعرف بالتلغراف السلكى واللاسلكى ، وما يؤدى به يسمى

المسموعات ، فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا



كلاما ايضا، فهذا أظهر مثال يضرب للوحى ، وتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الخلق ، ثم اهتدوا الى اختراع الة أخرى تنقل الاصوات والكلام من قطر الى قطر وان بعدت المسافات سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة فى مسألة الخلاف فى خلق القران عملا بأمر المؤلف اذ كتب بخطه فى طرة نسخته ما نصه (فى الطبعة الثانية يحذف القول فى خلق القران) وبين لنا السبب فى ذلك فى الدرس فقال : انه التزم فى الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التى ليست من مذهبهم . وكان الذى ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطى (رح) فأذعن وذكر ذلك فى الدرس وقد نوهنا بذلك فى مقالة للمنار عنوانها (سجايا العلماء) وماشرحناه تصوير للحقيقة المثبتة لمذهب السلف الداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان ولله الحمد

اجمال الكلام فى الصفات

أبتدىء الكلام فيما أقصد بذكرحديث ان لم يصح، فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » (١)

اذا قدرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى الى كماله ، انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض

---

(١) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها ، قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الاحياء : روى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه باسناد ضعيف، ورواه الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه اخر أصح منه ، ورواه الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر . قلت : فيه الوازع بن نافع متروك ا هـ زاد الزبيدى فى الشرح : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا فى الاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والطبرانى فى الاوسط ، وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعه والاصبهانى وأبو نصر فى الابانة ، وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح . كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة ا هـ

« كتاب الهلال » لا حاجة الى كل هذا التحقيق الذى أورده السيد رشيد رضا على هذا الحديث ، فالرواية بالمعنى جائزة . وأكثر الاحاديث رويت بالمعنى .. !

الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . وأما الوصول الى كنه (١) حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته . لأن اكتناه المركبات (٢) انما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره

خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة ، فصلوها فى علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه ، وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس

---

(١) كنه الشيء : جوهره وحقيقته وغايته ، ومعرفة الكنه هى معرفة الاحاطة التى ليس وراءها غاية يبحث عنها

(٢) الاكتناه معرفة الكنه ، مثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه ، وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل اليه علم من اكتشف هذا التركيب ، يسمونها الاوكسجين والادرجين على نسبة معينة . فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه ، ولكن اكتناه البسيط كالادروجين مما لا سبيل اليه كما قال المصنف

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص . ولذة عقله ان كان سليما انما هى تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به ، وادراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب ، فالاشـــتغال بالاكتناه اضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه وهى نفسه : أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر ؟ .. هل هى قبل الجسم أو بعده ؟ .. هل هى فيه أو مجردة عنه ؟ ..

كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حى له شعور وارادة ، وكل ما أحاط به بعـــد ذلك من الحقائق الثابتة ، فهو راجع الى تلك العوارض التى وصل اليها ببديهته . أما كنه شيء من ذلك ، بل كيفية اتصافه ببعض صفاته ، فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانسانى مع ما يساويه فى الوجود

أو ينحط عنه ، بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر . وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ؟ .. ماذا يكون دهشـه بل عجزه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟ ..

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ، ويضىء للنفس طريقها الى معرفة مَن هـذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، والى اتصـافه بما لولاه لمـا صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظـام ، وتخالف الأنظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطـل ، ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطـل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف

وأما الفكر فى ذات الخالق : فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب فى ذاته ، وتطاول الى ما لاتبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى الى ما لايدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لايصح حصره

لاريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر ، منفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه

أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف فيها النظار ،

وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه ، اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه .. والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل ، وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى .. وانما تلك مذاهب فلسفة ان لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع ، فما علينا الا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين



الفصل الثالث

أفعال الله وأفعال العباد



أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وارادته ، وكل ماصدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته .. فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته ، فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق واعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص .. فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل من علم وارادة أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب عنه لذاته ، كما هو الشأن فى لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا .. فان ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبقت الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق فى السير الى مقصد واحد ، ثم التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر . فظن كل أن الآخر

عدو يريد مقارعته على مابيده ، فاستحر بينهم القتال وما زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقى وهم الناجون ، ولو تعـارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ماأملوا ، ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين

نريد تلك المقالات المضـطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله ، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعمـاله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم فى الايجـاب حتى ظن النـاظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحـدا من المكلفين يفـرض عليه أن يجهد للقيـام بما عليه من الحقوق وتأدية مالزمه من الواجبات . تعالى عن ذلك علوا كبيرا

وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لايرضونه الا قلبا (متغيرا) يبرم اليوم مانقضه بالأمس . ويفعل غدا ماأخبر بنقيضه اليوم أو غافلا لايشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين ، وأصدق

القائلين .. جبروت الله وطهـــارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لاتخلو من حكمة . وصرح الغلاة والمقصرون جميعـــا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله ، والكذب فى أقواله ثم بعـــد هـــذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ، ويتمارون فى الأوضـــاع . ولا ندرى الى أى غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد الى حقيقة واحدة مااختلفوا فيه

معنى الحكمة

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما ، أو يدفع فســـادا خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، ومن يزعم للحكمة معنى لايرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة وبداهة العقل ـــ لايسمى مايترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان مايتبع العمل مرادا لفـــاعله بالفعل ، والا لعد النـــائم حكيما فيما لو صدرت منه حركة فى نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا ، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط

فيهـــا ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجمـــاوات اذا اســـتتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصـــة أو العامة ، والبداهة تأباه

من القواعد الصـــحيحة المسلمة عنـــد جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لاتصدر الا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وان كان هذا فى العاقل الحادث فماظنك بموجـــد كل عقل ، ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لاينازع فيها أحد

صـــنع الله الذى أتقن كل شىء ، وأحسن خلقه ، مشحون بضروب الحكم .. ففيه ماقامت به السموات والأرض ومابينهما وحفظ به نظـــام الكون بأسره ، وماصانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه مااستقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصا ماهو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التى نعرفها الآن بوضـــع كل شىء فى موضعه وايتاء كل محتاج ماله اليه الحاجة ، اما أن تكون

معلومة له مرادة مع الفعل أو لا .. ولا يمكن القول بالثانى ، والا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة ، أوبالغفلة ان لم تكن مرادة . وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته ، فهو يريد الفعل ويريد مايترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا الا ارادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، اذ لو صح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وارادته ، وهو مما لانزاع فيه بين جميع المتخالفين . وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ما أوعد ووعد به ، فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين(١) ، وماجاء فى الكتاب أوالسنة مما قد يوهم

---

(١) كتب الاستاذ الامام فى هامش نسخته ما نصه : « ولا يقال : ان غاية حكمته الوجوب عليه ، لانه هو جاعل الغاية وذو الغاية وكون الغاية غاية ، لانه المبدع الذى لا يتأثر بشيء ولا يحكم عليه أمر ما أراده »

خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ماهدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى مايليق بكمال الله وبالغ حكمته ، وجليل عظمته . والأصل الذى يرجع اليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على البـاطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »

وقوله « لاتخذناه من لدنا » أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لايشـوبه نقص وهو محال . و « ان » فى قوله « ان كنا فاعلين » نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقى أن الناظرين فى هـذه الحقائق ينقسـمون الى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته .. فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ، ولا يبالى جوز شرع اطلاقها فى جانب الله أو لم يجوز ، فيسمى الحكمة غاية وغرضـا وعلة غائبة ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق

اسم متى صح عنده معناه . وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لاله عظيم ، يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردها ومركبها ، فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام ، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتـأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم اعمال النظر واجالة الفكر ، وهما من لوازم النقص فى العلم ، والغاية والعلة الغائية والغرض ، توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البـدء فى العمل الى نهايته ، وفيها مافى سوابقها . ولكن ـ الله أكبر ـ هل يصح أن تكون سعة المجال ، أو التعفف فى المقال ، سببا فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق الى ماصاروا اليه من سوء

أفعال العباد

كما يشـــهد سليم العقل والحواس من نفســـه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده .. كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدرة مافيه ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد لذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة، فيعود باللائمة على نفســـه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوســائل أحكم ، وينقد غيظه على من حال بينه وبين مايشتهى ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى

مطلبه ، لوجداته من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره ، أو لمنافســة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أو علق أمله بعين فمات أو بذى منصب فعزل . يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل اليه سلطته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحــد يصرفه على مقتضى علمــه وارادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر اليه فيما لقى .. ولكن مع ذلك لاينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات . ويشــهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ــ عقلية كانت أو جسمانيةــ قائم بتصريف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرف القوم شــكر الله على نعمه ، فقالوا « هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ماخلق لأجله » على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف .

ومن أنكر شيئا منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ماقام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته ، وبين ماتشهد به البداهة من عمل المختار ، فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لاتكاد تصل العقول اليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين .. ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدأوا . وغاية مافعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ، ومحو للتكاليف ، وابطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى الى الاشراك بالله — وهو الظلم العظيم — دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ماجاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ماوهبه الله من

الأسباب الظاهرة ، وأن لشىء من الأشياء سلطانا على ماخرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقـــاد من يعظم ســـوى الله مســـتعينا به فيما لايقدر العبــد عليه .. كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا

هــذا هو الشرك الذى كان عليــه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأســـباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

الأول ــ أن العبد يكسب بارادته وقدرته ، ماهو وسيلة لسعادته

والثانى ــ أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها مايحول بين العبد وبين انفاذ مايريده ، وأن لا شىء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى اتمام عمله بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد فى تصحيح الفكر واجادة العمل .. ولايسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك

وهذا الذى قررناه قد اهتدى اليه سلف الأمة ، فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخرى أهل النظر امام الحرمين الجوينى [1] رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

***

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لايقتضى من المكلف الا اعتقاده أن الله صرفه فى قواه ، فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاده أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى

---

(١) امام الحرمين لقب أبى المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى الذى نصر مذهب السلف بالصراحة التامة . ولد فى نيسابور سنة ٤١٩ هـ وتوفى سنة ٤٧٨ هـ اتبع مذهب الاشعرى ، وهاجر الى الحجاز ، وعلم فى مكه . ومن مؤلفاته : « البرهان فى أصول الفقه »

اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لايعلمه ولايدخل تحت ارادته

وأما التطلع الى ماهو أغمض من ذلك ، فليس من مقتضى الايمان كما بينا ، وانما هو من شره العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار . ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى مااطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم .. على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من يشاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضلّ قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم

لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ماهى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ماهى عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه

ومن تلك الأنواع الانسان ، ومن مميزاته ــ حتى

يكون غير سائر الحيوانات ــ أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان اما ملكا أو حيوانا آخر . والفرض أنه الانســان ، فهبة الوجود له لاشيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب (الله) محيط بما يقع من الانسان بارادته ، وبأن عمــل كذا يصــدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر . والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة على الكسب والاختيار فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب ، وكون مافى العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لايتبدل

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة ، لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختيــاره لابالمنع ولا بالالزام . فانكشاف الواقع للعالم لايصح فى نظر العقــل ملزما

ولا مانعا ، وانما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ، ورجوت أن لايبعد عن عقل يألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ، ولكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه فى صحة الايمان ، وتقاصر عقول العامة عن ادراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون ، فانجاءهم بما يخالف مااعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته

فأكبرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم « ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه » عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون ، محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا الا على معروف . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..

حسن الافعال وقبحها

الأفعال الانسانيه الاختيارية لاتخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنــا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أن اســتحضار صورها ، يشابه كل المشابهة ماتنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا ، أوحضورها فى تخيلاتنا .. وذلك بديهى لايحتاج الى دليل

نجد فى أنفســنا بالضرورة تمييزا بين الجميـل من الاشياء والقبيح منها ، فان اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء ، أو مشارب النســاء فى معنى جمال الرجال .. فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض .. ولا فى قبح الصورة المثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجابا

ومن القبيح اشمئزازا أو جزعا ، وكما يقع هذا التمييز في المبصرات ، يقع في غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وماهو القبح في الأشياء . ولكن لايخالفنا أحد في أن من خواص الانسان ، بل بعض الحيوان ، التمييز بينهما . وعلى هذا قامت الصناعات على اختلاف أنواعها ، وبه ارتقى العمران في أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن ، وان اختلفت الأذواق .. ففى الأشياء جمال وقبح

هذا في المحسوسات واضح ، ولعله لاينزل عن تلك الدرجة في الوضوح مايلم به العقل من الموجودات المعقولة ، وان اختلف اعتبار الجمال فيها .. فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبهر له بصائر لاحظيه . وللنقص قبح لاتنكره المدارك العالية ، وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح في المحسوسات

وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل ،

والسقوط فى الهمة ، وضعف العزيمة ؟ . ويكفى أن أرباب هذه النقائص فى الهمة يجاهدون فى اخفائها ، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به . فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، ولكن أثر المر فى معالجة المرض ، وعدل الدميم فى رعيته أو احسانه اليك فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فان جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلايشعر الوجدان منه الا بالجميل .. ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أضر ، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر

***

هل يمكن لعاقل أن لايقول فى الأفعال الاختيارية ، كما قال فى الموجودات الكونية ، مع أنها نوع منها .. وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية اما بنفسها واما بأثرها ، وتنفعل عما يلم بها منها كما تنفعل عما يرد عليها من صور الكائنات ؟ . كلا .. بل هى قسم من الموجودات ، حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الأفعال الاختيارية ماهو معجب فى نفسه تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة ، وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العازف بها . ومنها ما هو قبيح فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع المذعورين (١)

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الألم ، وماهو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم . فالأول : كالضرب والجرح ، وكل ما يؤلم من أفعال الانسان . والثانى : كالأكل على جوع والشرب على عطش ، وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألما مما لايحصى عده . وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ ، والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود ، اللهم الا فى قوة الوجدان وتحديد

(١) نقعهم : صياحهم . يقال: نقع الصوت اذا ارتفع ونقع الصارخ (كفتح) نقعا ونقوعا :رفع صوته

مرتبة الجمال والقبح

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، ومايقبح بما يجر اليه من الضرر .. ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى ، اذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر ، اللهم الا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل ، وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ مايقبح لشؤم عاقبته ، كالافراط فى تناول الطعام والشراب ، والانقطاع الى سماع الأغانى والجرى فى أعقاب الشهوات ، فان ذلك مفسدة للصحة ، مضيعة للعقل ، متلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل

وانما قبح اللذيذ فى هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة مايجر اليه عادة من الآلام التى ربما لاتنتهى الا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم

ومن المؤلم مايحسن ، كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق ، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ، ليتوفر للقوى البدنية

والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لايخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ان عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا : مقارعة الانسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه ، أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه ، أو قبيلته ، أو شعبه ، أو أمته ــ حسب ارتقائه فى الاحساس ــ ومخاطرته ولو بحياته فى سبيل ذلك ، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه ، وان لم يحددها عقله . ومنه معاناة التعب فى كشف ماعمى عن علمه من حقائق الكون ، كأنه لايرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس الى مايحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ماكسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه ، أو ماله فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المعتدى ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

التمييز بين الفضيلة والرذيلة

كل هذا عرفه العقل البشرى ، وفرّق فيه بين الضار والنافع .. وسمى الأول فعل الشر ، والثانى عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمـال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة ، كما ربط بهمـا نظـام العمران البشرى وفسـاده ، وعزة الأمم وذلتها ، وضـعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملّى ولا فيلسوف ، فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع ، والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده فىأفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع ، وما وصل الينا من تاريخ الانسان ، وما عثرف عنه فى جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل .. قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها ، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبـة العمل ، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ، ورفع البنيان الى الحـد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من أنقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضـار والنافع .. فمن زعم أن لاحسن ولا قبح فى الأعمال على الاطلاق فقد سلب نفسـه العقل ، بل عدها أقل ذكاء من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعـد موته كما وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ، ثم قال ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل .. وأنها انما تسـقط فى الشقاء

بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك أن من الأعمال ماهونافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضار لها بعده بايقــاعها فى الشقاء .. فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليــه أن يقول بعــد ذلك بحكم عقله : ان معرفة الله واجبة ، وأن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وأن الرذائل ومايكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك ما يشــاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، والى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه

اما أن يكون ذلك حالا لعــامة النــاس ، يعلمــون بعقولهم أن معرفة الله واجبــة ، وأن الفضائل منــاط السعادة فى الحياة الأخرى ، والرذائل مدار الشقاء فيها. فمما لايستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه

حاجات الانسان ومخاوفه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محــدودة ، كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا ، وكان ما وهب له من

الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة ، لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته ، وتخلص كلٌ من شر الآخر، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجو من الأجواء ، ولا بوضع من الاوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته فى أى اقليم وعلى أى حال ، وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته .. ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات الا باستقامة القامة ، وعرض الأظفار

وهب الله الانسان أو سلّط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة ، والمخيلة ، والمفكرة .. فالذاكرة : تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهى.. والخيال يجسّم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى

يصير كأنه مشاهد ، ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه .. فتلجأ الى الفكر فى تدبير الوسيلة اليه

على هــذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر ، هادىء الخيال ، صحيح الفكر .. ينظر مثــلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألمــا لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى ســد حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره باعطــاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعنــد ذلك يوجّه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبــه الله من القوى فى نفســه ، وما سخّره له من قوى الكون المحيطة به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هــذا

المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولايزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر ، فيستتر عنه ما طاب من وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطّل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسنّ سنّة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين .. فلقوة الذاكرة وضعفها ، وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته ، أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح .. ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه اصابة وجه الحق فى

معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جرّ الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وانعظمت لذته الحاضرة.. ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع مايكتنفهم .. فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه ، وكلٌّ يظن أنه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا . فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة .. اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر ..

تفاوت العقول وحاجتها الى هدى النبوة

وليست عقول الناس سواء ، فى معرفة الله تعالى أو فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة . فليس فى سعة العقل

الانسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحيـاة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة . وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم الله بكمال العقـل ونور البصيرة ، وان لم ينل هـذا القليل شرف الاقتـداء بهدى نبوى . ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه . وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهى

ثم من أحوال الحياة الأخرى ، مالا يمكن لعقل بشرى أن يصـل اليه وحده . وهو تفصيـل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما

ومن الأعمـال ما لايمكن أن يعرف وجه الفـائدة فيه [1] لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور بعض

(١) أى لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه ، غير كونه تعبدا مع ظهور فائدبه التعبدية ، وهو فعله لمحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظة منفعة خاصة به ، ويعبرون عن هذا القسم من العبادة بغير معقول المعنى ، ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلا كالوضوء والغسل وطهارة البدن والثوب . فان فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحة النفس وهناء المعيشة ظاهرة . كذلك فائدة الصـلاة فى جملتها والصيام والزكاة وغير ذلك من حكم العبادات وقد أجملهـا المؤلف فى الكلام على الدين الاسلامى ومن المستغرب قوله هنا : لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها

العبادات كما يرى فى أعداد الركعات ، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية ، وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية (١) وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية — كل ذلك مما لايمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا فى قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ما هو خير له فى الحياتين — الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال ، وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الالوهية ، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة

وبالجملة يستعين بهذا المعين فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولا يكون لهذا المعين سلطان على

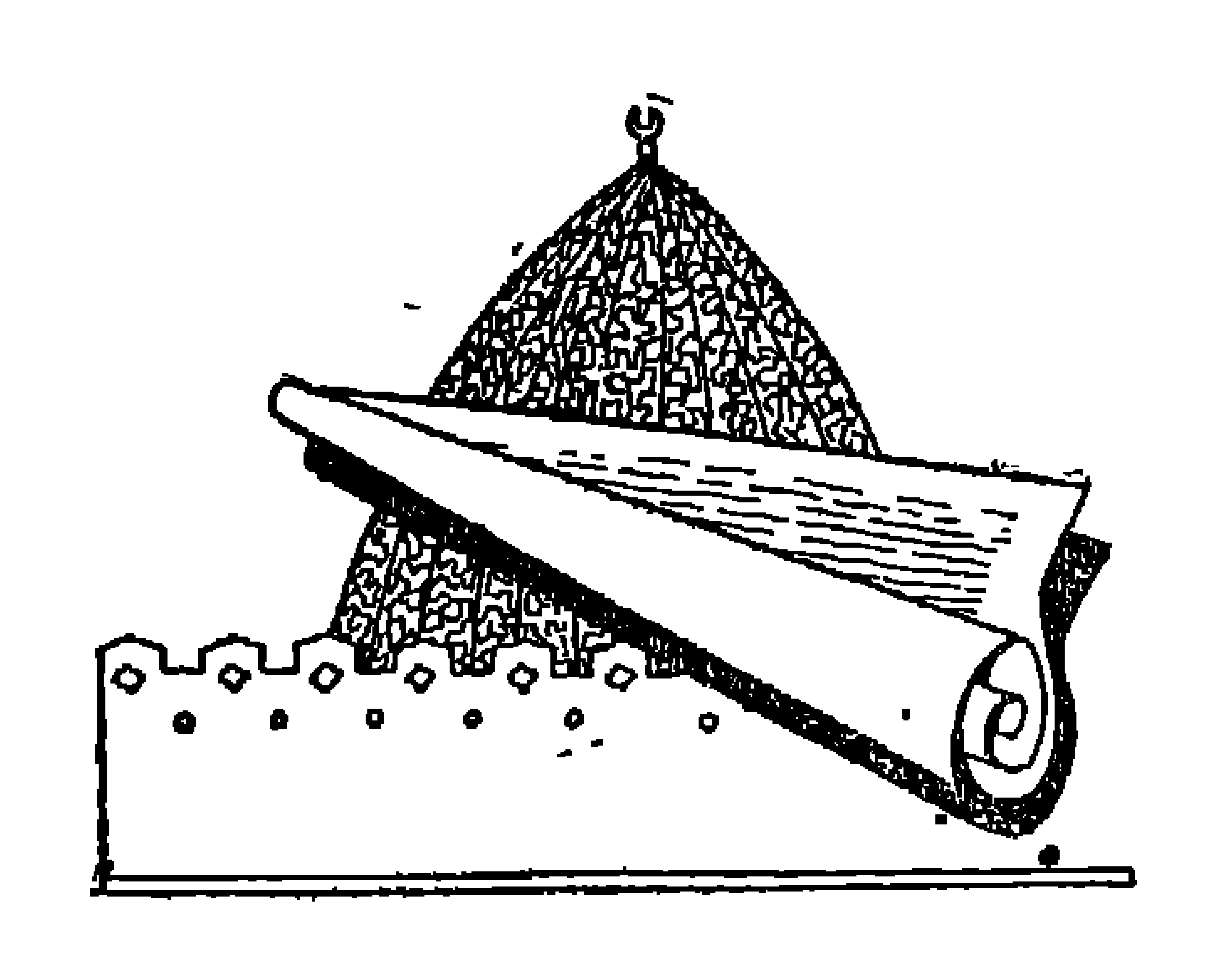
---

(١) يظهر أن حكمة بعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية هى محاكاة ما ألفه اليهود فى مصر ثم فى فلسطين من رؤية احتفالات الامم الوثنية مع توجيه الانفس فيه الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه وحده حتى لا يعودوا الى امثال ما فعلوا فى التيه من اتخاذ عجل كعجل المصريين (ابيس) والى مثل عبادتهم

وأما المبالغة فى الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فحكمته المبالغة فى مقاومة غلو اليهود والرومان فى عصره فى عبادة المال والشهوات البدنية تمهيدا لدين الاسلام الوسط المعتدل الدائم الذى يجىء به البار روح الحق محمد (ص) الذى بشرهم به وقال انه هو الذى يعلمهم كل شىء

نفسه ، حتى يكون من بنى جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة . ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه . ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منهـا ، والحيـاة الآخرة وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه والثقـة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبـط ما تشتت عليه ، وعلى ادراك ما ضعف عن ادراكه

هذا المعين هو : « النبى » ! ..



الفصل الرابع

النبوة والرسالة العامة

النبوة وتحديدها للعقائد

النبوة تحدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب الوجود من الصفـات وما يحتـاج اليه البشر كافة من ذلك ، ونشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم ، لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة .. فجاءت النبوّات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله، وبوحدانيته ، وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيّناه . وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك

فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة وحظر الجهالة والجحود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبّحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس

ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عمـاد الطمأنينة ، فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بيّنه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق

العقوبة التى نصَّ عليها .. كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها ، وانما جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك

وأذكر مثالا من كثير: قال تعالى على لسان يوسف : « أأربنب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار؟» يشير بذلك اشــارة واضحة الى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجّه قلبه اليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، وأما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيــد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام اخوتهم ، وهى قاعدة ســعادتهم ، واليها مآلهم فيما أعتقد وان طال الزمان (١) .. فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوضع الحسن فيه

---

(١) كان المؤلف رضى الله عنــــه يعتقد أن ارتقاء الامم من طــــريق علوم الكون والنفس والاجتمــــاع سينتهى بهم الى التوحيد وســـائر ما قرره القرآن من أصــول الدين« سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحــق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ، الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شىء محيط » ـ من هامش السيد محمد رشيد رضا

تحديد النبوة للاعمال

والنبوة تحدّد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الانسان فى الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه ، فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أوأخروية باعتبار أثره فى أحوال المعيشة ، أو فى صحة البدن ، أو فى حفظ النفس ، أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه ، كما هو مفصل فى الاحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال ما لايمكن درك حسنه ، ومن المنهيات ما لايعرف وجه قبحه ، وهذا النوع لا حسن له الا الأمر ، ولا قبح الا النهى .. والله أعلم

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل (١) لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفيّ غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدّد لها فى رتبة نوعها من الوجود

والكلام فى هذا البحث من وجهين :

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم ، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان .. فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلاً من البشر مبشّرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه..قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه ، فى فضائل أعمال

(١) الرسل هم الانبياء الذين اختصهم الله بالوحى وارسلهم بالهداية الى البشر . والانبياء هم الذين اختارهم الله من بين البشر لمكانهم القدسى ولم يرسلهم الى البشر . فالرسول فى معناه أعم من النبى

وصفات يطالبهم بها ، وفى نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها .. وأن يعتقد وجوب تصديقهم فى أنهم يبلّغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتــداء بهم فى ســيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق .. وأن يؤمن بأنهم مؤيّدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاســتطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صــدق النبى فى دعواه .. فمتى ادعى الرســول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقــاد بعلو فطرتهم ، وصــحة عقولهم ، وصــدقهم فى أقوالهم ، وأمانتهم فى تبليغ ما عُهد اليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوّه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزّهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الالهى بما لايمكن

معه لنفس انسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية

أما فيما عدا ذلك ، فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده : يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويسهون ، وينسون ، فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام .. ويمرضون وتمتد اليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء (١)

المعجزة وناموس الطبيعة

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته .. بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة ، لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف

فان قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى

قلنا : ان واضع الناموس هو موجد الكائنات ،

---

(١) قال تعالى على لسان السيد المسيح : « قال انى عبد الله اتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا » . وفى آية اخرى فى سورة الكهف : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى إلى انما الهكم اله واحد .. »

فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات .. غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصّه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث ـ على أى هيئة وتابعا لأى سبب ـ اذا سبق فى علمه أنه يُحدثه كذلك

المعجزة والنبوة

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند اليها فى دعواه أنه مبلِّغ عن الله .. فاصدار الله لها عند ذلك يُعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى . ومن المحال على الله أن يؤيِّد الكاذب ، فان تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله (١) .. فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم

---

(١) يشير الامام الى أن دلالة المعجزة وضعية ، لانها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور .وقيل : عقلية وقيل : عادية ومن هذه المباحث ماقرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد فى النصوص السمعية

بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده ، وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله ، فان سُلِّم أن مظاهره فاقت آثار الأجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شىء (١)

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء ، فلأنهم لو انحطت فَطَرهم عن فِطَر أهل زمانهم ، أوتضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر ، أو مسَّ عقولهم شىء من الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهى الذى يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه . ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم ، حجة للمنكر فى انكار دعواهم . ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلِّين لامرشدين .. فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر كذلك لو أدركهم

---

(١) يريد ان يقول ان المعجزة مدد الهى يخص الانبياء. اما السحر فهو علم يقتدر به الساحر على التأثير فى النفوس . وفى مقدمة ابن خلدون فصل نفيس عن علوم السحر والطلسمات . وقد فرق فيه بين السحر والمعجزة ، واشار فيه الى وجود السحر كما نطق القرآن فى غير موضع

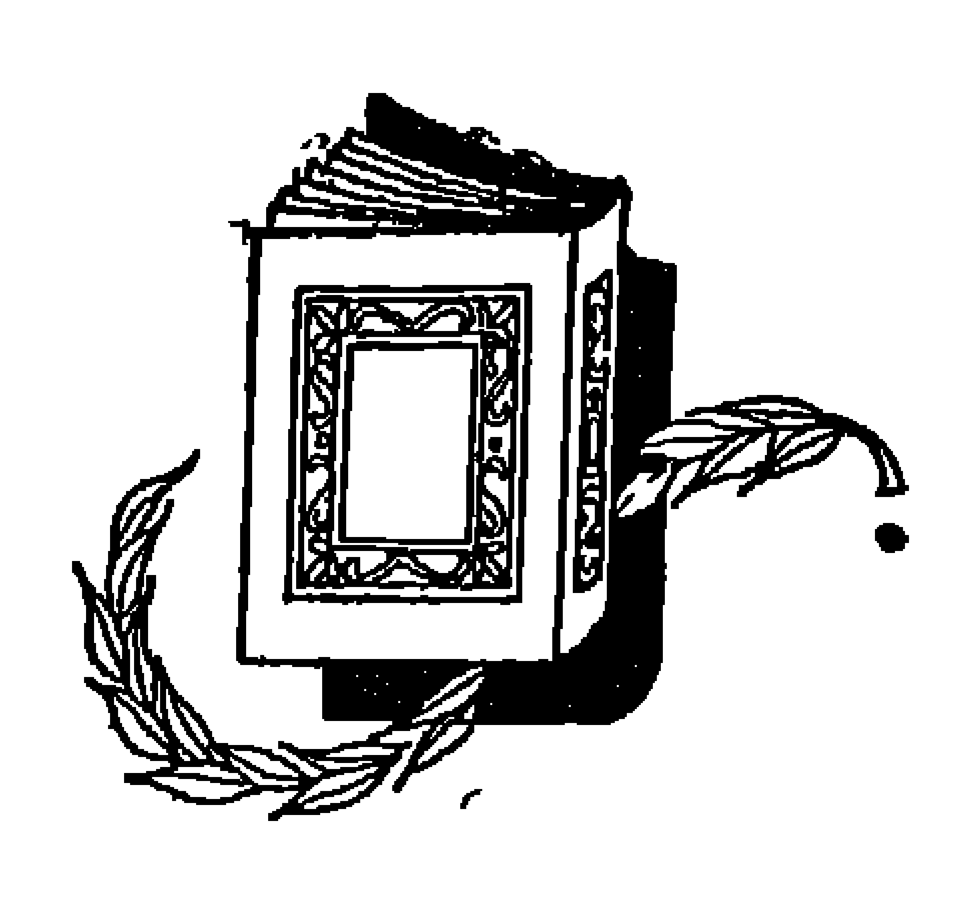
السهو أو النسيان فيما عُهد اليهم تبليغه من العقائد والأحكام

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله، ولا له مدخل فى التشريع ، فجوّزه بعضهم والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل (١) ثم أباحه لظهور أثره فى الاثمار ، فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعيّة ، والفضائل محميّة ، وماحكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه .. وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم ، كأن النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار

---

(١) « تأبير النخل » تلقيحه ،والحديث فى صحيح مسلم والروايات صريحة فى تأييد قول المجوزين دون الجمهور ، منها رواية موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعا «ان كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ،ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل » ورواية رافع بن خديج «انما أنا بشر اذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر» ورواية عائشة « أنتم أعلم بأمر دنياكم » — « م . ر . ر . »

آدم عليه السلام ، أومظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود ، والله أعلم (١) .. ومن العسير اقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور



(١) للمؤلف رحمة الله كلام مفصل فى هذه المسألة ، قرره فى تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الاول من تفسير المنار ، فهو مما لم يحم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضا : ان آدم عليه السلام لم يكن فى الجنة نبيا رسولا، ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به . وقد صح فى حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله الى أهل الارض ، وهو ظاهر عدة ايات فى القرآن لا محل هنا لذكرها . وانما الغرض هنا ان قصة آدم عليه السلام لا ترد على الدليل النظرى الذى استدلوا به على عصمة الانبياء . والجمهور يقولون بأن عصمتهم انما تثبت بعد النبوة لا قبلها ، والمجمع عليه منها العصمة فى التبليغ أو عما ينافى الرسالة وعن الكفر . قال السعد فى شرح المقاصد : والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقا ، والصغائر عمدا لا سهوا ، لكن لا يصرون ولا يقرون بل ينبهون فيتنبهون . ثم أجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) كيف ولم تكن فى الجنة أمة وكان من نسيان لقوله تعالى (فنسى) الخ « م . ر . ر . »

حاجتنا الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول ، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل . والكلام فى هذا الفصل موجّه الى بيـان الحاجة اليهم .. وهو معترك الأفهام ، ومزلة الأقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام . ولسنا بصـدد الاتيـان بما قال الأولون ، ولا عَرض ما ذهب اليه الآخرون ، ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر الى ما مال اليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق.. اللهم الا اشارة من طرف خفى ، أو الماعا لايستغنى عنه القول الجلى

وللكلام فى بيان الحاجة الى الرسل مسلكان :

الأول : وقد سبقت الاشـارة اليه ، يبتـدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسـانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم ، أوتشقى

فيها بعذاب أليم ، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية ، معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

الحياة بعد الموت

اتفقت كلمة البشر : موحِّدين ، ووثنيين ، مليين ، وفلاسفة — الا قليلا لا يقام لهم وزن — على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء (١) .. وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه .. وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال : انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها. ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من

(١) أى موت عدم ، لان فنى بكسر النون معناها عدم بكسر الدال وهلك

هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين ، وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم

وتضارب آراء الأمم فيه قديما وحديثا ، لا تكاد تحصى وجوهه (١)

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لايمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزغة وهمية .. وانما هو من الالهامات التى اختص بها هذا النوع ، فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا ، وان شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما .. أو الى أنه لايمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا انه لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال ، وانهم شاكون حتى فى أنهم شاكون .. ولم يطعن شذوذ

---

(١) فى كتاب «الساعات الاخيرة» لمقدم هذه الرسالة فصل طويل عن هذا الموضوع بعنوان « نظرات فى الحياة والموت »

هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأسُّ البقاء الى الأجل المحدود .. كذلك قد ألهمت العقول ، وأشعرت النفوس ، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود .. بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيًّا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه ..

ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيِّقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيَّأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرَّضة لآلام من الشهوات ونزغات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعة الجواء (١) والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ، ولا تنتهى عند حد .. الهام يلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأنواع ، انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ، ولم يتعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان

(١) الجواء بكسر الجيم جمع جو . ويجمع أيضا على أجواء

استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات ، لايصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هذا البقاء الأبدى ، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت اليه . وكيف الاهتداء وأين السبيل ، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ؟ .. شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد ، وقضاء الأزمنة والأعصار ، فى تقويم الانظار وتعديل الافكار واصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال الى الآن من همّ هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها

***

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ .. هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب؟ وهل فى طوق الفكر ما يوصّل كل أحد الى معرفة

ما قدر له فى حيـاة يشعر بها ، وبأن لا منـدوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو الى معرفة بيـد من يكون تصريف تلك الشئون ؟..

هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمار ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبـة اليك ؟ .. كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشـاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت ، فالنظر فى المعلومات الحـاضرة ، لا يوصـل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصـانع الحكيم ، الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليـم ، الذى خلـق الانسـان ، وعلّمه البيـان ، علمـه الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل، أن يجعلمن مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه منخلقه، وهو أعلم بحيث يجعـل رسـالته ؟ .. يميزهم بالفطر السليمة ، ويبـلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه

للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمتـــه ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما ســيكون من شــأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهــد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيــا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لبــاس من ليس من سكانها . ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفى عن العقــول من شــئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للنــاس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه .. معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد من متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدّد لهم سيرهم فى تقويم نفوســهم وكبح شــهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو منــاط سعادتهم وشقائهم، فى ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضــمائرهم فى اجماله . ويدخل فى ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من

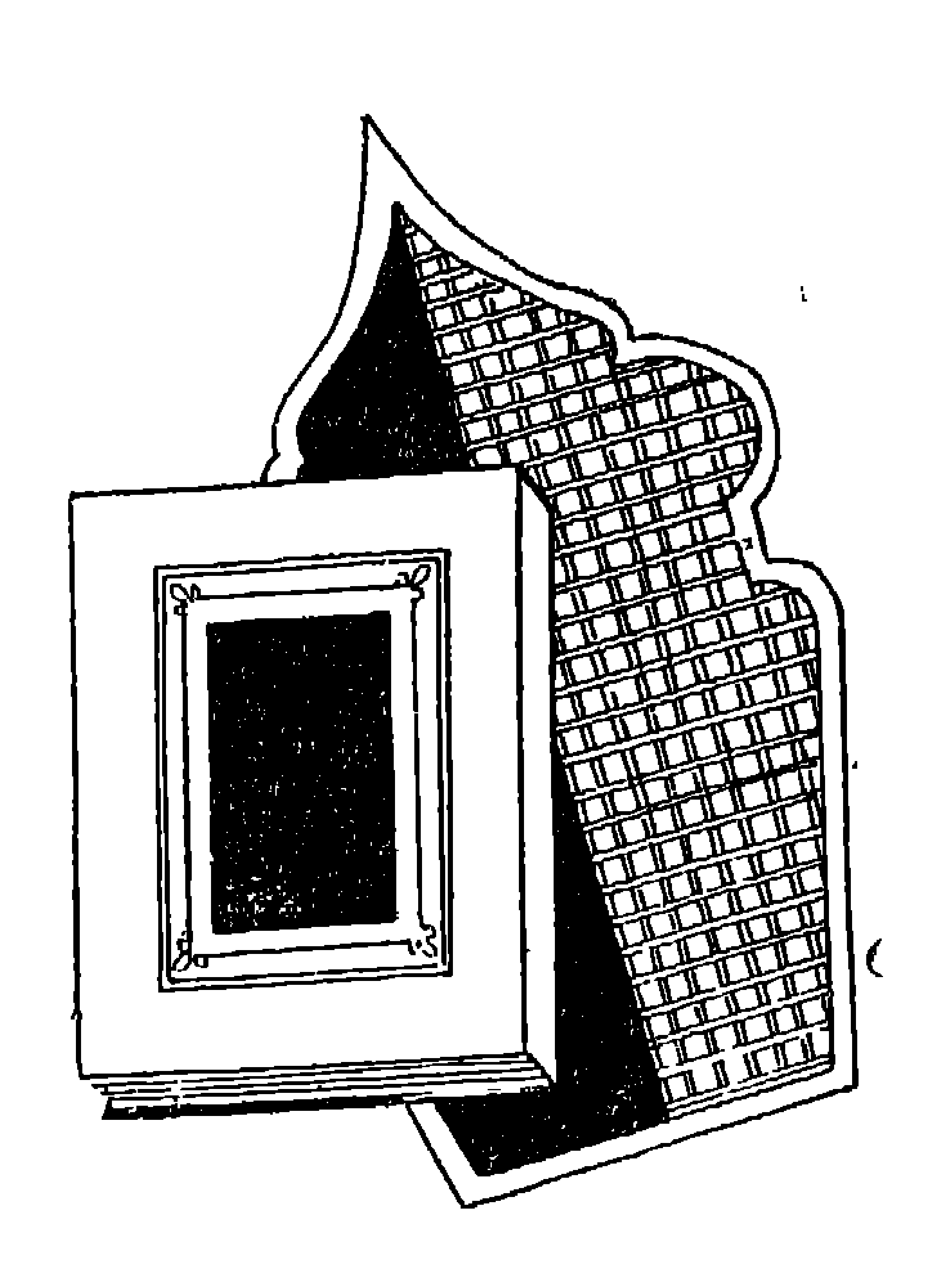
الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونوا بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين .

لاريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حى بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه

يقول قائل : ولِم لَم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الاخرى ؟.. وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ ..

وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث ـ وهوالنوع الانسانى ـ ذلك النوع على ما به ، وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه

مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان اما حيوانا آخر كالنحل والنمل ، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض



المسلك الثانى
فى الحاجة الى الرسالة

هذا المسلك يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه ، فقد أرتنا الأيام — غابرها وحاضرها — أن من النـاس من يختزل نفســه من جماعة البشر ، وينقطـع الى بعض الغابات ، أو الى رءوس الجبال . ويستأنس الى الوحش، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان ، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى الى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والاشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر ، أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا

ولكن مَثَل هذا مَثَل النحلة تنفرد عن الدبر (١) وتعيش عيشــة لا تتفق مع ما قُدِّر لنوعهــا ، وانما الانســان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن

(١) الدبر بالفتح والكسر: جماعة النحل وكذا الزنابير

تعيش مجتمعة وان تعددت فيهــا الجماعات .. على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل ما لاغنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور ما بالحاجة الى سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد .. وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك ، فلا حاجة الى الاطالة فى بيانه . وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا فى جملة ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى .. فى الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشــتداد الحــاجة الى التفاهم ، وليس الاضــطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر ، الا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الأيدى العاملة ، فتشتد الحاجة .. وعلى أثرها الصلة من الأهل الى العشيرة ، ثم الى الأمة ، والى النوع بأسره . وأيامنا هــذه شاهدة على أن الصــلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى

هذه الحاجة خصوصا فى الأمة التى حققت عنوانها ،

لها صلات وعلائق ميَّزتها عما سواها : حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

حاجة الانسان الى المحبة

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة فى غيره ، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يُشعِر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل .. فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخَّرة لمنافعها ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منها للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الأمم وروحا لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنَّة الكون ، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب ، فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابَّيْن اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو

فيها لايفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه . فاذا عرض التبادل والتعارض ولوحظ فى العلاقة بينهما ، تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع . وقام بين الشخصين مقام المحبة ، اما سلطان القوة ، أو ذلة المخافة ، أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ، ويخلص له ، ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه فى سداد عوزه ، فصورة شبعه وريّه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقدها بفقده .. فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرّضا لخطر ما عادت اليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا ، واندفع الى اخلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لأن الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتمتع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الاحسان

ومصدره ، وليس وراءهما مذهب .. فحاجته فى سدّ عوزه هى حاجته الى القائم بأمره ، فيحبه محبتة لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض فى الخدمة

أما الانسان ــ وما أدراك ما هو ــ فليس أمره على ذلك . ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى اطــلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره الى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهى غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهى غير محدودة ، وايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهى رغائبه الى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية قوله تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسّه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا »

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل ، وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضــعفا أو كســلا ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعا . يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك

الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده . ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل . ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل ، اعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لاضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مكان التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الانسان اما الحيلة واما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا فى وصول كلٍّ الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية ؟ .. كلا ! .. ولكن قدِّر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همِّه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد اليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الأنفس كادت تتغلب على جميع

الشهوات ، وأخذت لذة الوصـول اليها من الأرواح مكانا لا تكاد تصـعد اليه سـائر اللذات .. وهى من أفضل العوامل فى احراز الفضائل ، وتمكين الصـلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله (١) ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا اليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة ، حتى خيِّل لكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته فى القلوب باخافة الآمن وازعاج الساكن ، واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بُنى نظامهم وعلّق بقاؤهم فى الحيـاة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا فى الأعمال ؟ .. أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سببا فى تفانيهم ؟ .. لاريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

محبة العدل

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل ،

(١) فى الجزء الثـانى من تاريخ الاستاذ الامام فصل مسهب بقلمه بعنوان « حب المحمدة الحقة » ص ٣٠١ من مقالاته

وظنوا كما ظن بعض العارفين ، ونطق به فى كلمة جليلة « ان العــدل نائب المحبة » .. نعم لا يخلو القول من حكمة ، ولكن من الذى يضــع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟.. قيل : ذلك هو العقل .. فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل واصالة الحكم ، تذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيّله المخاوف .. فيعرفون لكل حقٍّ حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسّموا أعمال الانسان الى ماتحضر لذته وتسوء عاقبته وهومايجب اجتنابه ، والى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الأخذ به ، ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد اخلاصه فى دعوة قومه الى مايحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقــلاء هم الذين يضــعون قواعد العــدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سُمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنّته أن يخضع كافة افراده أو الغائب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب؟

وهل كفى فى اقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : انهم مخطئون وان الصواب فيما يدعوهم اليه ؟ وان أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ ..

كلا ! .. لم يُعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنّته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقل والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل الا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل ..

فمجرد البيان العقلى لايدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها

الشعور بالسلطان الغيبى

أضف الى ما سبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها .. كل انســـان مهما علا فكره وقوى عقـــله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ماهو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق اليها ارادة المختارين

تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسِّها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها الا الطريق التى حدّدت لنوعها وهى طريق النظر ، فذهب كلٌّ فى طلبهـــا وراء رائد الفكر .. فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبتـــه الاشجار والاحجار لاعتبـــارات له فيها ، ومنهم من تبدّت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفـــرقة تتمـــاثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع الها

ولكن كلما رقّ الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلّت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى الى أنه قدرة واجب الوجود

غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعا

اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان أشد أثرا فى التقاطع بينهم واثارة أعاصير الشقاق فيهم ، ومن اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فُطر على أن يعيش فى جملة ، ولم يمنح مع تلك الفطرة ما مُنحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما يلزم لذلك ، وانما تُرك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فُطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ، ولم يفض عليه مع هذا الشعور عرفان بذات

ذلك القاهر ولا صفاته ، وانما ألقى به فى مطارح النظر، تحمله الافكار فى مجاريها ، وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منى هذا النوع بالنقص ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ ..

نعم .. هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه .. يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت (١) ، ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل ، وينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين

---

(١) « الملكوت » صيغة مبالغة للملك ولا يطلق الا على ماالله تعالى منه دون ملك البشر ، ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت وهذا من الجبر وهو اصلاح الكسر ، وللملكوت والجبروت معنى آخر فى اصطلاح الصوفية تراجع فى تعريفات السيد الجرجانى وغيرها

من ذلك الضعف قيد الى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه ، بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده (١) .. وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس ، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع

منّ عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة ، بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها ، لم يخالف سنّته فيه . ومن بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد ، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه . وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميّزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم .. وأيّد ذلك زيادة فى الاقناع

(١) أى أكمل للمجموع مالا يصل اليه كسب الافراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للافراد ـ رشيد رضا

بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم بها عقل العاقل ، فيرجع الى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل ، فيرتد عن غيه ..

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته ، وكمال صفاته — وأولئك هم الأنبياء والمرسلون — فبعثه الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص — نعمة أتمها الله : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

وسنتكلم على وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد


الفصل الخامس
الوحي
ووظيفة الرسل

الوحى
تعريفه وكونه ممكن الوقوع

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه ، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه .. ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان

ولنذكر من اللغة ما يناسبه . يقال : وحيت اليه وأوحيت ، اذ كلمته بما تخفيه عن غيره والوحى مصدر من ذلك ، والمكتوب والرسالة ، وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى الى الأنبياء من قبل الله . وقيل : الوحى اعلام فى خفاء ، ويطلق ويراد به الموحى (١)

وقد عرّفوه شرعا : أنه اعلام الله تعالى نبى من

---

(١) قوله ويطلق على الموحى ، يريد أن الوحى اصطلح على أنه تعليم الله لانبيائه أمور الدين بواسطة الملائكة يرسلهم اليهم . وهو بهذا المعنى عام فى جميع الاديان الثلاثة الاسلام والمسيحية واليهودية

أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على رأينا أنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة

والأول يكون بصوت يتمثّل لسمعه [1] أو بغير صوت . ويفرّق بينه وبين الالهام ، بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

أما امكان حصول هذا النوع من العرفان « الوحى » [2] وانكشاف ما غاب عن مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لايريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه الفهّامة على أن لا تفهم

---

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك ، كما ورد فى الحديث الثانى من صحيح البخارى ا هـ من هامش نسخة المؤلف

(٢) فى دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادى) للمرحوم محمد فريد وجدى بحث ضاف عن « الوحى » بدأه بهذا الفصل من هذه الرسالة . ثم اتبعه بأحاديث الوحى ، ثم برأى الفلاسفة الاوربيين فى الوحى ـ ارجع اليه فى مادة « وحى » بالجزء العاشر ص ٧٠٦

نعم يوجد فى كل أمة ، وفى كل زمان ، أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم الى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس .. بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ماهو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ، وسرّه ومكنونه ، ويجدون فى ذلك لذة الاطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن محابس الحشمة التى تضمهم الى التزام ما يليق ، وتحجزهم عن مقارنة ما لايليق ، كما هو حال غير الانسان من الحيوان

فاذا عُرض عليهم شىء من الكلام فى النبوات والأديان ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت : أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان

ما لاينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر، متى حفته (١) العناية بهذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لايدرك ما عليه الأعلى الا على وجه من الاجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط .. بل لابد معه من التفاوت فى الفِطَر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه

ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ، ما هو بديهى عند من هو أرقى منه . ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك الى ما لا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها (٢) قريبا فيسعى اليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى لايتنازع ، والظاهر الذى لايتجاحد

---

(١) حفاه معناها أعطاه . ويقال حفاه الله به أى أكرمه . ومعنى قول الامام « حفته العناية بهذه النعمة » أى أكرمته وخصته عناية الله بهذه النعمة .

(٢) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريبا عنده .

فاذا أنكره متنكر ثاروا عليه .. ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم اليه . ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة الى اليوم

فاذا سلم « ولا محيص عن التسليم » (1) ما أسلفنا من المقدمات

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها ، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله العيان ما لم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم .. ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة ، وفى كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته ، الى أن

---

(1) لان العقل يقر ذلك ويؤيده كل التأييد

يبلغ النوع الانسانى أشـــدّه ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته الى سعادته كافية فى ارشاده ، فتُختم الرسالة ويُغلق باب النبوة ، كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

ظهور الملائكة للرسل

أما وجـود بعض الأرواح العالية ــ وهم الملائكة المكرّمون ــ وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية ، فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشـــتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وان غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هـــذا الوجود اللطيـــف مشرقا لشىء من العلم الالهى ، وأن يكون لنفوس الأنبياء اشراف عليه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حَملَنا على الاذعان بصحته (١)

أما تمثّل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حسِّ من اختصّه الله بتلك المنزلة ، فقـــد عهـــد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم .. فقـــد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل

(١) قال فى الاساس : أذعن له سلس وانقاد . وأذعن فلان بحقى : أقر به ا هـ وكلا المعنيين يصح هنا ولكنه فى الاول أظهر

فى خيالهم ، ويصل الى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله انه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك فى الحقيقة بواقع

فان جاز التمثل فى الصورة المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس ، وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلمَ لايجوز تمثّل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس . وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لايوجد فى مزاج غيرهم ؟ .. وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم (١) وهو مما يسهل قبوله بل

---

(١) بل ثبت بتجارب الاطباء — حتى الماديين منهم — أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالامور قبل وقوعها فيصدق . قال مريض منهم ، كان بمصر : ان فلانا — من اقاربه — فى الاسكندرية خرج من داره الى محطتها قاصدا السفر الى مصر لعيادتى .. ثم أخبر انه وصل الى محطتها ودخل القطار ، ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى اذا ما جاء موعد وصول قطار الاسكندرية الى مصر قال المريض : قد وصل القطار ونزل فلان منه .. ها هو ذا خارج من المحطة وركب مركبة تحمله الى هنا . ثم قال : ها هو ذا قد وصل ، فاذا هو بالباب وقد دخل (م.ر.د)

ونقول نحن ان هذه الحال هى ما اطلق العلماء عليها الان اسم الجلاء البصرى . وقد أثبت العلم الحديث ان هناك حالتين قد يمتاز بهما بعض الافراد من الاخرين وهما : قراءة الافكار ، والجلاء البصرى (ط.ا. ط)

يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة

وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به ، وقام منهـا الدليل على رسالتهم ، والدليل على سـلامة شهودهم وصـحة ما يحدثون عنه : أن أمراض القلـوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل

أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال من النوع أو الجنس .. لهم مشـارفة فى بعض أحوالهم على شىء فى عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .. ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة

أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فِطَرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجّه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألىء فى بصائرهم ، الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبّهين بهم .. ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ، ومآل من غرّروا به . ولا يكون لهم الا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، الا أن يتداركهم الله بلطفه .. فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبئوا به وبوقوعه الا حجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة



وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ، ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة ، وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر (١) : رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته : قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالاخبار بوجود مكة ، أو بأن للصين عاصمة تسمى « بكين »

وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوّه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك الى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

(١) يريد بالعلم الآخر « علم الحديث »

لا نزاع بين العقلاء فى أن هـذا النوع من الاخبار يحصِّل اليقين بالمخبر به ، وانما النزاع فى اعتبـارات تتعلق به . ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر ، كابراهيم ، وموسى ، وعيسى . ومما جاء به الخبر : أنهم لم يكونوا فيمن بعثـوا بينهم بالأقوى سلطانا ، ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه ، وغاية الأمر : أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة النـاس الى الله على رغم الملوك وأجنـادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادَّعوا أنهم يبلغون عن خـالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليـل ما تصـاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدي

لا يصلح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس ، على أن من لايعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول ، والباطل لابقاء له الا فى الغفلة عنه ،كالنبات الخبيث فى الارض الطيبة ينبت باهمالها ، وينمو باغفالها .. فاذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون

وأما بقية الرسل مما يجب علينا الايمان بهم ، فيكفى فى اثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .. فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته

وظيفة الرسل

تبيَّن مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميَّز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه .. ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكاتها ، أو ايداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين

وأما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات

اليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لاينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحدا من الناس بشرٍّ فى نفسه، أو عِرضه ، أو ماله ، بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حُدِّد فى شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يُعرف من صفاته ، ويبينون الحدّ الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان على وجه لا يشقّ عليه الاطمئنان اليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على اله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوى ماضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا

يبيّنون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيّدون بما يبلغون

عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة

يعودون بالناس الى الألفة ؛ ويكشفون لهم سرّ المحبة ، ويلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كلٌّ حق الآخر وان كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز فى الطلب حده ، وأن يعين قويُّهم ضعيفهم ، ويمد غنيُّهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضالَّهم ، ويعلِّم عالمُهم جاهلَهم ..

يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمالهم ، كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له ، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير الا بحق ، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرَّم من الأبضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة : كالصدق ، والأمانة ، والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود ، والرحمة بالضعفاء ، والاقدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، الى طلب الرغائب السامية .. آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظوراته

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظارا لجزيل الأجر ، أو ارضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل (١) فى الاجتماع الانسانى لايزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم

---

(١) يشير الى مشكلة رأس المال والنزاع بين العمال وأصحاب الاعمال ومانشأ من العراك القائم بين الاشتراكية والرأسمالية

الرسل ليسوا مدرسين

ليس من وظـائف الرسـل ما هو عمل المدرسين ، ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ.. ولا تفصـيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيـان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الارض، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر اليه الحيوانات فى بقاء أشخاصـها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم .. فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك .. يزيد من سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنّة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبيـاء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه الوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

وأما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئـة الأرض ، فانما

يقصد منه النظر الى مافيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لايجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحكمة فى ارسالهم

ولهذا قد يأتى التعبير الذى سبق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجّه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم (١)

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميّزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان .. بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان ، مطالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من

---

(١) أمر الله تعالى جميع البشر خاصتهم وعامتهم ، بالنظر والتأمل فى الكائنات ليهتدوا بذلك الى الخالق ، فقال فى عدد كثير من الآيات : « قل انظروا ماذا فى خلق السموات والارض .. » .. الخ ماجاء من ذلك فى القرآن الكريم ، كما أمر بالمعرفة وحض على العلم ، فقال : «.. هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » . وندد فى كثير من المواضع بمن لايعلمون وبمن لايعقلون ولا يهتدون ويستوى فى ذلك الخاصة والعامة

الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لايغفرها له رب العالمين



اعتراض مشهور

قال قائل : ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكمالا لنظام اجتماعهم ، وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون .. كل يستعد للوثبة ، ولا ينتظر الا مجيء النوبة ، حشو جلودهم الظلم ، وملء قلوبهم الطمع ، عدّ أهل كل ذيُ دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ، ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوة لا للحق

والدين .. فها هو ذا الدين الذى تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبـة ، كان سـببا فى الشـقاق ومضرما للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟ ..

نقول فى جوابه : نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمـه ويغلو فيه ، أو لا يغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبيـاء أنفسهم ، أو الخيرة من تبعتهم ، والا فقل لنا : أى نبى لم يأت أمته بالخير الجم ، والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها ، فىأفرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس ــ بل الكل الا قليلا ــ لايفهمون فلسفة أفلاطون ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسـطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها الا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى اصلاح العمل . فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات

بها ، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها ، فأى الطرق أقرب اليك فى مهاجمة شهواتها وردها الى الاعتدال فى رغائبها ؟

من البديهى أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان [1] مضار الاسراف فى الرغب ، وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر ، وانما تجد أقصد الطرق وأقومها فى أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر قهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه اليه، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمّة همه ، وتسوق اليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر .. ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، تنعش روحه بذكر رضاء الله عنه اذا استقام ، وسخطه عليه اذا تقحم

عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم

(1) الجار والمجرور فى قوله « فى بيان » متعلق بقوله لاتجد

يفهم من ذلك كله الا أنه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ، ويسخطهم اذا عصى .. ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يَسِم نفسه أنه ليس منهم

كم سمعنا أن عيونا بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوبا خشعت لواعظ الدين .. لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ .. هذا أمر لم يعهد فى سِيَر البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للأمرين الا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة ، بل فى أخلاق الخاصة .. وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا : ان منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص ، أو منزلة العلَم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول :

منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟.. ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردّى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه

يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها .. ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله .. كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء .. فالدين هاد ، والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ، ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم اليه : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين »

ألا ان الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطمأنينة ، به

يرضى كلٌّ بما قُسِم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة ، والى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الالهية ..

وظيفة الدين ووظيفة العقل

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى .. وكل ما وجّه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه . وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ، ويرجعوا الى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع اليه قوته وتظهر للأعمى حكمته

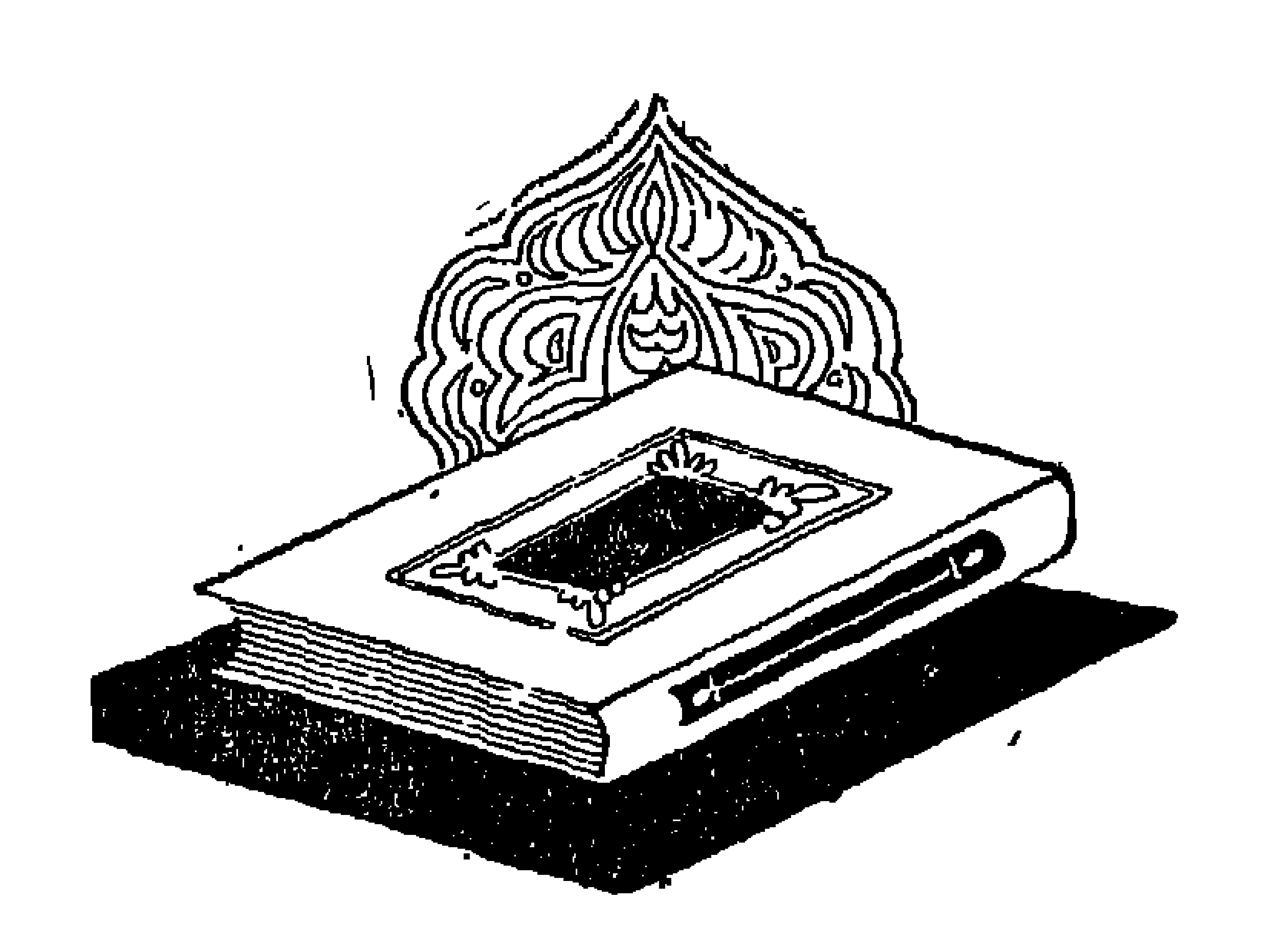
ربما يقول قائل : ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق

على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به ، وانما الذى سبق تقريره : هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد الهى ، كما لا يستقل الحيوان فى ادراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا (١) كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والاذعان لما تكشّف له من معتقدات وحدود أعمال

كيف يُنكر على العقل حقّه فى ذلك ، وهو الذى ينظر فى أدلّتها ليصل منها الى معرفتها ، وأنها آتية من قِبَل الله .. وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبىّ أن يصدّق بجميع ما جاء به ، وان لم يستطع الوصول

(١) قال المؤلف فى الدرس : هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلايناقضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل مايحتاج الى ادراكه (م.ر.د)

الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين ، أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به .. فان جاء ما يوهم ظاهر ذلك فى شىء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض الى الله فى علمه . وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى



الفصل السادس

رسالة محمد والقرآن الكريم

حاجة الامم الى قارعة

ليس من غرضنا فى هذه الرسالة أن نلمّ بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية ، لنبيّن كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسّة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء (١) الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، والى نار تنقضّ من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرءوسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارين .. وبالجملة تثوب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنّها الله له « انا هديناه السبيل (٢) » ليبلغ بسلوكها كماله ،

---

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف فى الدرس ، وكذلك قوله « والى نار » وقس على ذلك (٢) قال المؤلف فى الدرس : ←

ويصل على نهجها الى ما أعدّ فى الدارين له ، ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف

حالة الامم حين البعثة

كانت دولتا العالم : دولة الفرس فى الشرق ، ودولة الرومان فى الغرب ، فى تنازع وتجالد مستمر.. دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شَرَه هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان

← المراد بالسبيل والطريق ، فطرة الله التى فطر الناس عليها . من هامش رشيد رضا . واذا صح مايقوله السيد رشيد من أن هذا تفسير الاستاذ الإمام لقوله تعالى : « انا هديناه السبيل .. » فان باقى الآية فى قوله تعالى : « اما شاكرا واما كفورا » لاينسجم مع أولها . ولعل الاستاذ الامام يريد بفطرة الله نشأة الانسان وحياته الاولى قبل أن تشغله مطامع الدنيا ومافيها من لهو وفساد . وقد سار المفسرون على أن قوله هديناه السبيل ، بمعنى اوضحنا له طريق الحياة من خير وشر (ط . ١ . ط)

القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم ، فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذّاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها

ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانية قد يفتّق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزّق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة الى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل

ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام ، ويهيئوا كسفا من الأباطيل والخرافات ،

ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم مايريدون من المغلوبين لهم ، وصرّح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم عبيد أذلاء ، حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم الا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت الى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنّة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام .. مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معا ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ،

وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

حالة العرب

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع الى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت روابط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة (١)

---

(١) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الامم بصفات وأخلاق كانت سبب ظهور المصلح الاعظم منهم : كاستقلال الفكر ، وقوة الارادة ، والشجاعة والنجدة ، والجود والايثار ، وحماية الجار .. اذ لم يستعبدوا لرؤساء دينيين ولا سياسيين . وما ذكر من العيوب فيهم كوأد البنات لم يكن كله فاشيا فى جميع بلادهم وقبائلهم ، وكان زنا الحرائر نادرا ويعد من أنكر المنكرات

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدّبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معــه من كشف تلك الغمم التى أظلّت رءوس جميع الأمم ؟ .. نعم كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد

نشأة محمد (ص)

فى الليلة الثانية عشرة (١) من شهر ربيع الأول عام الفيــل « ٢٠ ابريل عام ٥٧١ من ميــلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة .. ولد يتيما ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمس جمــال وبعض نعاج وجارية ، ويُروى أقــل من ذلك . وفى العام السادس من عمره ، فَقَدَ والدته أيضــا فاحتضــنه جدّه عبد المطلب . وبعد عامين من كفالته ، توفى جدّه فكفله من بعده عمه أبو طالب .. وكان شهما كريما غير أنه كان

---

(١) هذا هو المشهور الذى درج عليه الناس فى تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوى وهو أحد الاقوال . والاصح عند المحدثين أنه ولد فى الليلة التاسعة منه . وفى رايى أن هذا ليس خلافا يستحق الذكر ، وقد سار المسلمون جميعا منذ زمن بعيد على أن النبى ولد فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول

من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول (١) ، ولم يقم على تربيته مهذِّب ، ولم يُعْنَ بتثقيفه مؤدِّب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام.. غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا ، وفضيلة وأدبا ، حتى عُرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : أدب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصا مع فقر القوّام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون ، رفيعا والقوم منحطّون ، وموحِّدا وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم

---

(١) المعروف المتواتر أن عبد المطلب كان عميد بنى هاشم وسيد قومه ، وقد خلفه فى ذلك أبوطالب .. وكانا يشتغلان بالتجارة ، ولم يكونا من الفقر بحالة تتسم بالعوز والحاجة الى الناس ، وإن لم يكونا من الاغنياء أصحاب الضياع ورءوس الاموال . وقد أراد الامام فى وصفه لنشأة النبى (ص) فى هذه الحال أن الله أكرمه مع ذلك بنعمه الكبرى (ط . ١ . ط)

واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أمّيا مثله ، تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما ان كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبّهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده .. فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١).. ولكن الأمر لم يجر على سنّته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة .. وما جاء فى الكتاب من قوله تعالى : « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم .. حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين ، وانما هى الحيرة تلمّ بقلوب أهل

(١) كأمية بن ابى الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل

الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين ، وارشاد الضالين . وقد هدى الله نبيّه الى ما كانت تتلمسه بصيرته ، باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيئا من المال يسد حاجته ـ وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفّه معيشته ـ بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها .. وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا .. ولم تغرّه زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدّمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة ، والتحنث (١) بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه فى طلب المخرج من همّه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه .. الى أن انفتق له الحجاب عن

---

(١) التحنث من تحنث أى تعبد ، واعتزل الاصنام

عالم كان يحثه اليه الالهـام الالهى (١) ، وتجلى عليه النور القدسى ، وهبط عليه الوحى من المقام العلى .. فى تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه مالك ، فيطـالب بما سلب من ملكه . وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قنـاعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دلَّ عليهما ما فعل جدّه عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم .. جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيهـا لعبد المطلب مائتا بعير(٢) ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك

(١) اى من غير شعور منه . ويظن الباحثون فى سيرته «ص» من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين انه «ص» كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولاسيما فى عهد تحنثه فى غار حراء . ولكن الله تعالى يقول : (وماكنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك) اى لكن القى اليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه (ص) على نفسه عندما فاجأه ملك الوحى فى حراء كما ثبت فى حديث الصحيحين — من هامش (م . ر . ر)

(٢) هذا يؤيد ان عبد المطلب لم يكن فقيرا ، بل كان غنيا ، وان لم يكن من أصحاب الضياع ورءوس الاموال . اما ابو طالب فقد كان كثير العيال .

فاستدناه وسأله حاجته . فقال : هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : « أنا رب الابل ، وأما البيت فله رب يحميه .. ! »

هذه غاية ما ينتهى اليه الاستسلام — وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش — فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا ؟.. لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شىء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ .. ما الذى أعلى رأسه على الرءوس ؟ .. ما الذى سما بهمّته على الهمم ، حتى انتدب لارشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم .. بل واحياء الرمم ؟ ..

ما كان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوّم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم .. ما كان ذلك الا وجدانه ريح

العناية الالهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء الى أمله ، قبل بلوغ أجله

ما هو الا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ، ويكفيه مئونة الدليل .. ما هو الا الوحى السماوى ، قام لديه مقام القائد والجندى ؟ ..

أرأيت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد . والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟ ..

دعوة محمد لجميع البشر

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفى الثانوية بافراد اله واحد بالتصرّف فى الأكوان ورد كل شىء فى الوجود اليه ..

أهاب بالطبيعيين ليمدّوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة ، فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به

صاح بذوى الرغبة ليهبطوا الى مصاف العامة ، فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات

والارض ، والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربِّهم الأعلى .. فبيَّن لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه ، لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة

وخَزَ بوعظه عبيد العادات وأسراء التقاليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلُّوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل

مال على قرَّاء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكَّت (١) الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدَّد النكير على المحرِّفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم

(١) بكت بتشديد الكاف من التبكيت وهو التعنيف والتقريع

ولفت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا ، عامة وخاصة، الى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما ، وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها ، بلا شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة . وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بلا واسطة أحد ، الا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة الى أولئك المصطفين انما هى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده .. وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه ، الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل .. ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة

دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وان كانا ممتزجين .. وأنه مطالب

بخدمتها جميعـــا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية عن الحق

دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هـــذه الحيـــاة لما سيلاقون فى الحيـــاة الأخرى ، وبيّن لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة .. كل هذا كان منه والناس أحياء ما ألفوا ، وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة .. كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيدشهواتهم، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقـــول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمّى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم ، والتطـــاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخـــذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ..

كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رءوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟ .. ما هذا السلطان فى مظنة العجز ؟ .. ما هذا العلم فى تلك الأمية ؟ .. ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ .. ان هو الا خطاب الله القادر على كل شىء ، الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة ، بريئا من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه

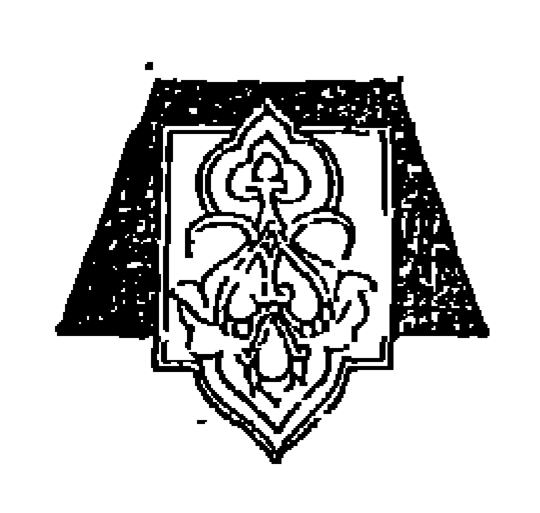
أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ .. أمى قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، فى ناحية عن ينابيع العرفان

جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب الى

سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخـذ يقرِّر للعالم أجمع أصـول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها ..

ما هذا الخطاب المفحم ؟ .. ما ذلك الدليل الملجم ؟.. أأقول ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ؟ ..

لا .. لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : ان هو الا بشر مثلكم يوحى اليه ، نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحيِّر الحواس ، أو يدهش المشاعر. ولكن طالب كل قوة بالعمـل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسـلطان البلاغة وصحة الدليـل مبلغ الحجة وآية الحق الذى « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »



القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تطرق اليه الريبة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرناها ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : انه أنزل عليه ، وأن ذلك الكتاب هو القرآن الكريم المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة .. نقّب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبّه على وجوه العبرة فيها

حكى عن الأنبياء ماشاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرّأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من

عقائدهم، وما خلطوا فى أحكامهم، وما حرّفوا بالتأويل فى كتبهم .. وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة فى اهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح الذى أودعته .. ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم

وقد جاء فى ذلك بِحِكم ومواعظ وآداب ، تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم (١)

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة ، وتواترت الأخبار، على أنه أرقى العصور عند العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدّمه بوفرة رجال البلاغة ، وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء : هو الغلب فى القول ، والسبق الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك ، مما لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه

(١) الامم بالفتح : الطريق الواضح المستقيم

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحـــرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه ، وتكذيبه فى الاخبار عن الله ، واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزّة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته ، والخطباء والشـــعراء والـــكتاب الذين يشـــمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أســـلافهم .. وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفّه أحلامهم ، ويحتقر أصنـــامهم ، ويدعوهم الى ما لا تعهده أيامهم ، ولم تحقق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله الا تحديهم بالاتيـــان بمثـــل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر ســـور من مثله (١) وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء

---

(١) كان التحدى بعشر سور مثله ردا على الدين قالوا « افتراء » ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) وقد بنيت حكمة هـذا العدد فى تفسير الآية من سورة هود ـ من هامش (م . د . ر)

والبلغاء ما شاءوا ليـأتوا بشيء من مثل ما أوتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة

اعجاز القرآن

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحـدى ، ولجاج القوم فى التعدى ، أصيبوا بالعجز ، ورجعـوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه على جميـع الأحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمّى أعظم معجزة ، وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسـول الأمّى صلوات الله عليه ؟..

هذا ، وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون ، كالخبر فى قوله : « غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضـع سنين » وكالوعد الصريح فى قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية . وقد تحقق جميع

ذلك ، وفى القرآن كثير من مثل هذا ، يحيط به من يتلوه حق تلاوته

ومن الكلام على الغيب فيه : ما جاء فى تحدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه ، بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها . ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة ، كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا . ومن الصعب ، بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه ، وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الارض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته (١) وانما ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير هو الناطق على

(١) يشير الى قوله تعالى « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم تفعلوا ــ ولن تفعلوا ــ فاتقوا النار » الخ . بالاخبار بالغيب فيه قوله « ولن تفعلوا » وكان هذا بعد التصريح بعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله ←

لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له ، وبلوغ ما حثهم عليه

← قد يقال : ان بعض دعاة الضلال فى بلاد الفرس والهند قد تحدوا مثل هذا التحدى فى بعض ماكتبوه لاثبات ماادعوه من الوحى اليهم أو الالوهية لانفسهم ، ولم نعلم أن أحدا تصدى لمعارضتهم . ونقول فى الجواب على تقدير تسليم الدعوى : ان أولئك لم يكونوا أولى شأن يبالى بدعوتهم وتحديهم ، بل من الموسوسين (كالباب والقديانى مسيح الهند الدجال) وكان جل ماجاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام العقلاء أو النبيين ، وماكان لعاقل أن يعارض المجانين ، ولا لبليغ أن يحاكى هـذيان المحمومين والمصروعين ، ولايزال يظهر أمثالهم فى تلك البلاد وغيرها ، ولا يبالى بهم أحد ، ولكن رزق بعضهم الحظوة فى بلاد أعجمية .. أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية ، وما ادعاه بعضهم من اعجاز بعض ماكتبه فهو ليس كتحدى الانبياء ، بل كمبالغة بعض الادباء والشعراء ، كالشيخ أحمد فارس الذى قال فى مقدمة كتابه « الساق على الساق » غلوا فى الفخر به

عهد الى ولدى أن يتحديا   أسلوبه وبدفتيه يطيفا

على أنه يوجد أمثال لتلك الكتب السخيفة ، ولهذه الكتب اللطيفة ، ولو قيل لهم أو لبعض أشياعهم : انها مثلها أو أمثل منها فى بابها لانكروا . ومن ذا الذى يبالى بهم وباقناعهم ، وليس شأن القرآن مع العرب ، ثم مع سائر الامم كذلك ، واعجازه من وجوه كثيرة فى نفسه ، وفى كون من جاء به أميا بلغ الاربعين . ومن المحال أن يبتكر أحد من البشر فى هذه السن علما لم يستمد له ، ولم يزاوله . وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو (ص) قد جاء بأقصى الغايات من أعلى العلوم ، لم يسبق له اكتساب شىء ما من الاستعداد له لا علوم العقائد ولا الشرائع ولا الحكمة العملية ولا العلمية ، ولا التاريخ وفلسفته ، ولا كان ممتازا قبله بالبلاغة فى الشعر والخطابة ، ولا الجدل ، ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى فى هذه العلوم . وتلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير مافيه من أنباء الغيب ، وكانت الدواعى لمعارضته قويه ، فانه زلزل سلطانهم الدينى والدنيوى ، حتى قوضه من أساسه ، ولم يكن لهؤلاء الادعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم ، على أن أدهاهم فى الدعاية ــ وهم البهائية ــ يخفون كتابهم الذى سموه الاقدس بدلا من التحدى به ، ولو أظهروه لافتضحوا به ــ من هامش (م . ر . ر .)

يقول واهم : ان العجز حجّة على من عجز .. فان العجز هو حجة الافحام والزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم ، ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بمُلزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بما يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهو وهْم يضمحل بما قدمناه من البيان ، اذ لايوجد من المشابهة بين اعجاز القرآن وافحام الدليل الا أنه يوجد عند كل منهما عجز .. وشتّان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فان اعجاز القرآن برهن على أمر واقعى ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة

وقلنا : « القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة .. وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم فى العناد كما بيّنا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم . فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجزعنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى جميعها

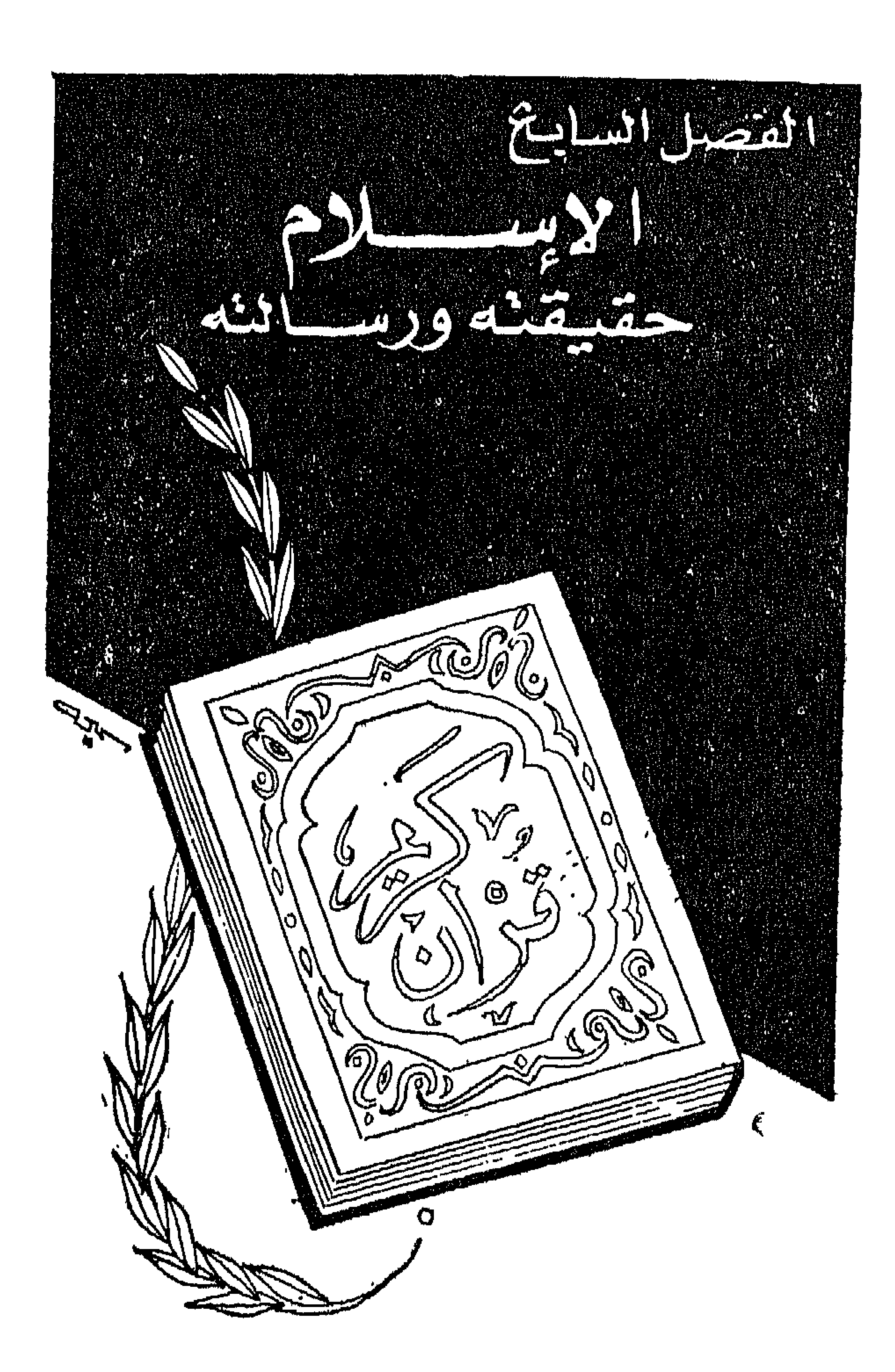
عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشـــــأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة

هـــذا دليـــل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، على ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح الأجل .. كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشـــهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهـــذه المعجزة العظمى ، وقام الدليـــل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ، ولا يتناوله التبديل ، أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رســـول الله الى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقـــاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى ، وسنّة متبعة ، وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء .. فوجب علينا الايمان بذلك

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامى ، وما دعا اليه على وجه الاجمال ، وكيف انتشرت دعـوته بالسرعة المعروفة ، والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين




الفصل السابع
الإسلام
حقيقته ورسالته

حقيقة الاسلام ورسالته

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم .. وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وانى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول : الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلمية ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم الا انه موجدهم ، وأنهم له واليه راجعون : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » وما ورد من ألفاظ

الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وانما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنّة له فى ذلك سنّها فى علمه الأزلى ، الذى لايعتريه التبديل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح .. بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وغاية أمرهم : أنهم عباد مكرمون (٢) وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص ، وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة

(١) يعنى الانبياء والرسل
(٢) اشارة الى قوله تعالى : « اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون »

خاصة . ولا يُعرف شأن الله فى شىء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دلَّ هذا الدين بمثل قول الكتاب الكريم : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون» (١) والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لأجله .. دلَّ بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس ، وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة .. فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها ..

وأما ما تتحيرفيه مداركنا وتقصردونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه من القوى المسخَّرة لها .. وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه

---

(١) قال المؤلف فى الدرس «لعل» فى القرآن تعبر دائما عن الاستعداد ، أى جعل لكم هذه الآيات ليعدكم بها للشكر ، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها أى وهذا ماخلقت لاجله ، بقرينة « لاتعلمون شيئا » قال « والافئدة » العقول أين كان محلها ، سواء أكان الدماغ أو القلب — هامش « م . ر . »

والاستعانة به ، فذلك (١) انما يرد الى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع الا له ، ولا تطمئن الا اليه . وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لايسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية ، وما وليها مما لواختلف عنها فى الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة .. وتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم . وارتفع شأن الانسان ، وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة ، بحيث أصبح لايخضع لأحد الا لخالق السموات والارض ، وقاهر الناس أجمعين . وأبيح لكل أحد ، بل فرض عليه أن

(١) قوله : فذلك الخ الجملة : خبر قوله ، وأما ماتتحير الخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية فى الكون هو مما أودع فى غرائز البشر ولكن هذه القوة هى لله وحده . فلا يجوز أن يتوجه أحد الى غيره فيما هو غير معتاد من الاسباب المشتركة بين البشر ، ولو كان نبيا أو وليا ـ من هامش (م.ر.ر.)

يقول كما قال ابراهيم : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمِرت وأنا أول المسلمين »

تجلّت بذلك للانسان نفسه حركة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره ، سواء كانت ارادة بشرية (١) ظن أنها شعبة من الارادة الالهية — أو أنها هى — كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال ، كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها . وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد بينه وبين الله ، الزاعمين أنهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الاشقاء والاسعاد . وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين

صار الانسان بالتوحيد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر

(١) قال المؤلف : كارادة القديسين والكهنة الذين يأتى ذكرهم مرتبا

على الحر ، لا علىّ فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته ، لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كلّ قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، « وأن ليس للانسان الا ما سعى »

وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيّبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته ، أو ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم

يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس . واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك .. ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم [1] صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبّت به من نومة طال عليه الغيب فيها .. كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق ، خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم ، فان الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والأزواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ـ أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبّهون ومرشدون والى طريق البحث هادون

---

(1) ذكر المؤلف منها فى الدرس ثلاثا : 1 ـ احترام المرء لآبائه ومربيه 2 ـ اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين 3 ـ الحذر من انكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه اذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أى فمن لم يحترم نفسه ، واستقلال فكره ، ويمرن نفسه على الاخذ بما يعتقد أنه الحق ، وان خالف الآباء والمعلمين والاحياء والاموات غير المعصومين من الخطأ ، فلايمكنه ان ينطلق من قيود التقليد ، وسيأتى فى كلامه مايهدم تلك القواعد والاركان ـ من هامش (م.و.د.)

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبيَّنوا صحته ونفعه .. ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجَّل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبَّه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان .. بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما

اقترفه سلفهم : « قل سيروا فى الارض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم ، وقولهم : « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ، « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قد قيّده ، وخلّصه من كل تقليد كان قد استعبده ، وردّه الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حدّ للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

أمران عظيمان

بهذا وما سبقه تمّ للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان ، طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له انسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها

وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ، ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان

***

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنّا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم ، لنيل تلك الرتب المقدسة .. ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لايفهموها ، وأن لايطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه . ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزيّة الفهم الا قليلا ، ورموا عقولهم

بالقصور عن ادراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالأصوات والحروف (١) .. فذهبوا بحكمة الارسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا فقال : «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانىّ وان هم الا يظنون » .. « مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله . والله لا يهدى القوم الظالمين »

أما « الأمانى » ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه الا أن يتلوه ، واذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيّلوه عقيدة وظنوه دينا . واذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك ، جاء فيما يقول بما ليس منه على بيّنة ، واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله « فويل للذين يكتبون

---

(١) أى ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند الفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين مصداقا لما أنبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تعبدنا بالقرآن فهو لاجل تدبره والاهتداء به ، ثم لاجل حفظه وتبليغه . فهما مقصدان ـ هامش (م.ر.ر)

الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »

وأما الذين قال : انهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها (١) ، فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها ، فحقّ عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب ، وقصم الظهر وانبهار النفس .. وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سببا فى اسعادهم ــ وهو التنزيل والشريعة ــ أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة

وبهذا التقريع ونحوه ، وبالدعوة العامة الى الفهم ، وتمحيص الألباب للتفقه واليقين ــ مما هو منتشر فى القرآن العزيز ــ فرض الاسلام على كل ذى دين أن

(١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه فى القرآن : « فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها »

يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ، لا تخص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات

***

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا ـ الا قليلا ـ فى جانب (١) عن اليقين، يتنابزون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الاسلام ذلك كله ، وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان ، وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد . قال الله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .. « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .. « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى

(١) أى بمعزل ، وقد تكرر هذا الاستعمال فى كلامه

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » .. « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الرسالة . والآية الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه ـ معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته

نصّ الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو افراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر(١) وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمّنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به ، وأن هذا المعنى من

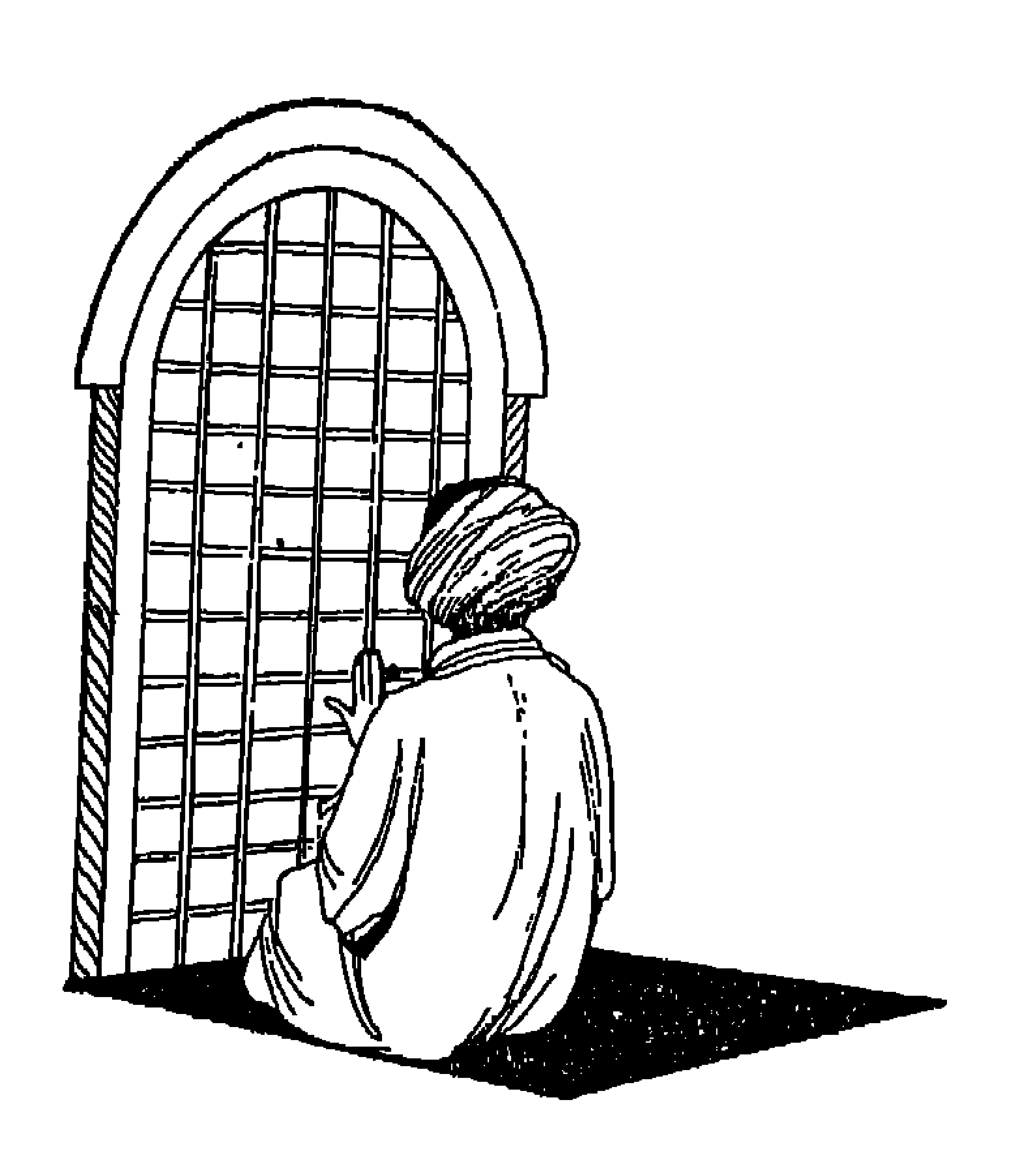
---

(١) قوله « مما هو الخ » ، صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها ، والسياق استئناف لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص فى قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » مع الالمام بحكمة ذلك ، وهو من الحقائق التى لم يسبقه اليها سابق

الدين ، هو الأصل الذى يُرجع اليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وأن اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبُعد عن سنَّته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على المبشر به ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هُداها ، وسار الكافة فى مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين

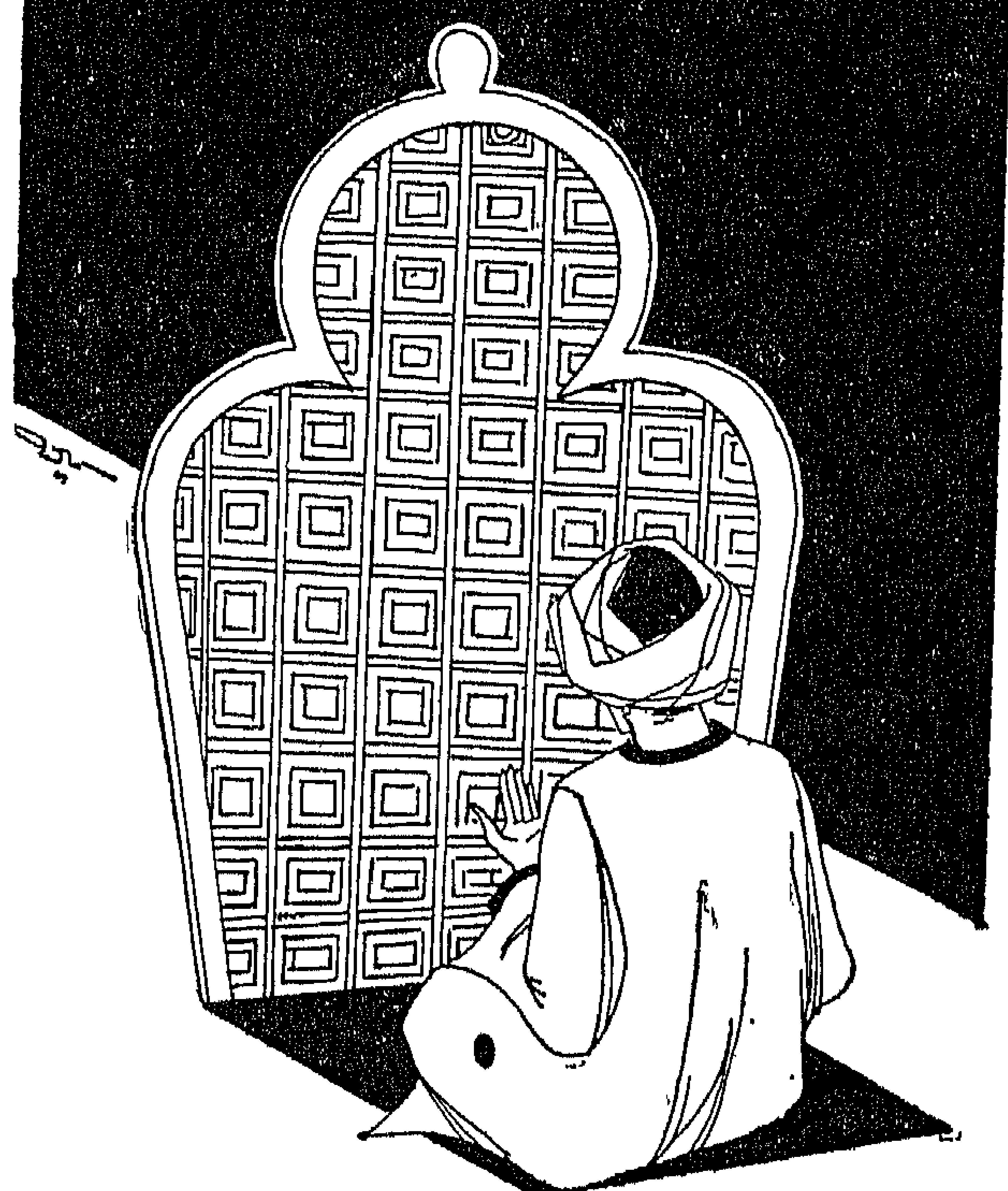
وأما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . وكما جرت سنَّته — وهو رب العالمين — بالتدريج فى تربية الأشخاص ، من خارج من بطن أمِّه لا يعلم شيئا ، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنَّته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم .. فلم يكن من شأن الانسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ من الكمال

منتهاه .. بل سبق القضاء بأن يكون شـأن جملته فى النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها ، وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرّع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة ، فلا نطيل الكلام فيه هنا



الفصل الثامن

الإسلام
مزاياه وحكمة عباداته



الاسلام والاديان الاخرى

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، فىطور أشبه بطورالطفولية للناشيء الحديث العهد بالوجود .. لا يألف منه الا ما وقع تحت حسّه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو بنى جنسه .. فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه ، فى همّ شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره ، اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام ، أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يرقى اليه بسلّم البرهان .. بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لايأتيه الا من قِبَل ما يحسّه بسمعه أو ببصره .. فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ،

وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة..
كلّفتهم بمعقول المعنى جليّ الغاية ، وان لم يفهموا
معناه ، ولم تصل مداركهم الى مرماه ، وجاءتهم من
الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ،
وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت
وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت
واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة
والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الأنفس بنفث الحوادث،
ولقن الكوارث ، شعورا أدق من الحس وأدخل فى
الوجدان ، لايرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء
أو تذهب معه نزعات الغلمان .. فجاء دين يخاطب
العواطف ، ويناجى المراحم ، ويستعطف الأهواء ،
ويحادث خطرات القلوب ، فشرّع للناس من شرائع
الزهادة مايصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجّه وجوههم
نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق أن لا
يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه
الأغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسنّ
للناس سننا فى عبادة الله تتفق وما كانوا عليه ، وما

دعاهم اليه.. فلاقى من تعلّق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتّباع وصاياه ضرب من المحال ، فهبّ القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال .. نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرّقوا شيعا ، وأحدثوا بدعا ، ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشدّ أركانها ، وتوهّموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل فى غيره من دقائق الأكوان ، والحظر على الأفكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة.. فصرّحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكفِ الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جدّ فى حَمْل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو

فى ذلك بالأنفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين ، للالزام ببعض قضايا الدين .. فتقوّض الأصل وتخرّمت العلائق بين الأهل ، وحلّت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام . وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

مزايا الاسلام

كانت سنن الاجتماع البشرى قد بلغت بالانسان أشدّه ، وأعادته الحوادث الماضية الى رشده .. فجاء الاسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبيّن للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الاجيال واحد ، ومشيئته فى اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح ، انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وأن الله لاينظر الى الصور ، ولكن ينظر الى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده ، كما طالبه

باصلاح سرّه ففرض نظافة الظاهر ، كما أوجب طهارة الباطن ، وعدّ كلا الأمرين ظهرا مطلوبا ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال ، انما هو لما أوجب من التحلّى بمكارم الأخلاق « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .. « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسّه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا الا المصلّين » ورفع الغنى الشاكر ، الى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضّله عليه .. وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة .. وصرّح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضاء الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول الى خير العقبى ، الا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم : «قل هاتوا برهانكم انكنتم صادقين».. وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونصّ على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل ، فأباح للمسلم أن

يتزوج من أهل الكتاب ، وسوّغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن

ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف . وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه ، قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونصّ على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدّمونه من مالهم ، ونهى بعد أداء الجزية (١) عن كل اكراه فى الدين ، وطيّب قلوب المؤمنين فى قوله : «يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ اذا اهتديتم»

(١) فيه أن النهى عن الاكراه فى الدين نزل قبل سورة براءة التى شرع فيها أخذ الجزية ، فالاكراه فى الدين ممنوع فى الاسلام مطلقا . ولكن اذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم ، أو تهديدهم لدعوتهم مثلا ، وجب عليهم أن يدعوهم أولا الى الاسلام بالاختيار ، فان أسلموا حرم قتالهم ، وان لم يسلموا دعوهم الى أداء الجزية ان كانوا من أهلها ، كأنهم يقولون لهم : انكم ألجأتمونا الى حربكم فنحن نقدم عليها الا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية ، وهذا لا يمنع من الصلح اذا اتفق عليه الفريقان ـ هامش (م.ر.ر.)

فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام ، فان نوره جدير أن يخترق القلوب. وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فانه لا اهتداء الا بعد القيام به .. كلّ ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرّع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية.. وقرّر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة ، وشرف اندراجها فى النوع الانسانى فى الجنس والفصل والخاصة.. وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعدّه الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حُرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسّة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيّروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

حكمة العبادات

هـذه عبادات الاسلام على ما فى الكتاب وصحيح

السنّة ، تتفق على ما يليق بجلال الله وسموّ وجوده عن الأشباه ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة.. فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرّع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات ، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير[1] .. وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخلّ بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير

وأما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس ، وتُعرف به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما كتب

---

(١) شبه الغزالى ذلك باختلاف مقادير الدواء المركب من أجزاء مختلفة بعضها كثير وبعضها قليل ، وكون هذا التفاوت فى القلة والكثرة يفوض الى علم الطبيب الذى وصف الدواء ، وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدوائه ، فاذا قال بعد ذلك : أنا لا أقبل منه الدواء الا بعد أن أعلم فائدة كل جزء منه وفائدة مقداره ، كان أحمق ومات بدائه ، وان ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوى وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلى وسواهما ، وزاد على ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات فى تطهير النفس من الشرور ونهيها عن الفحشاء والمنكر ــ هامش (م. ر. ر.)

على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

وأما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته ، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ــ ولو فى العمر مرة ــ يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير، والصعلوك والأميــر ، ويظهر الجميــع فى معرض واحد مكشوفى الرءوس متجردين عن المخيط ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين. ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين ، واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع . وهذا الاذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الاسلامية مقرون بما يدل على التنزيه ، وتقديس الله عما يوهم التشبيه (١)

أين هــذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين ، يضــل فيها العقــل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض

---

(١) عبارة الرسالة الاولى هنا : وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » وكان المؤلف قد صحح العبارة فى حاشية نســخة الدرس هكذا « وهم مع هذا الاذعان الكريم فى كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم » ثم صححها ثالثة فى الجدول بما اثبتناه هنا

من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها فى علمه الأزلى لا يغيرها شىء من الطوارىء الجزئية .. غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لايخسفان لموت أحد ولالحياته، فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلى» . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لايقضى فيه الا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها

الانسان ونعم الله

ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم ، التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزأون بها ، ففصل بين الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما

فأما النعم التى يمتّع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ، فكثير منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة ،

والضعف والفقد ، ربما يكون كاسبها أو جالبها ماعليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان .. وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا نذيرا لهم ، حتى يتلقاهم ما أعِدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى ..

وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم فى التسليم بقولهم : « انا لله وانا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل ، مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ، ولا فى تلك النعم الخاصة .. اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة ، كارتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم ، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر

وأما شأن الأمم فليس على ذلك ، فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر ،

وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ؛ والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل .. ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة الى مقره ، واستبدل الله بعزة القوم ذلا وبكثرتهم قلة ، وبنعيمهم شقاء ، وبراحتهم عناء ، وسلّط عليهم الظالمين أو العادلين ، فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا »

أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجئوا الى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر ،

والصبر والشكر « ان الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. « سنَّة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنَّة الله تبديلا » وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة »

على هذه السنن جرى سلف الأمة .. فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا (١)

***

حثَّ القرآن الكريم على التعليم وارشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك فى قوله :

(١) يعنى أن المسلمين لما كانوا فى القرون الاولى يجرون على سنن الله تعالى فى أسباب السيادة والقوة ، كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون أنهم ينالون كل شىء وتخرق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم ، ثم انقلبت الحال كما ترى

«ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم ؟.. فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضّت وجوههم، ففى رحمة الله هم فيها خالدون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور »

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصّرين ، أبرز حال الأمّارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمّة فقال : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع أن الايمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفا لتلك الفريضة واعلاء

لمنزلتها بين الفرائض ، بل تنبيها على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

الاسلام والعدالة الاجتماعية

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الغنى على الفقير، سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لكربة الغارم ، وتحريرا لرقاب المستعبدين ، وتيسيرا لأبناء السبيل .. ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ، ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس

الناس أجمعين . وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هـذا ؟ .. « ذلك فضـل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

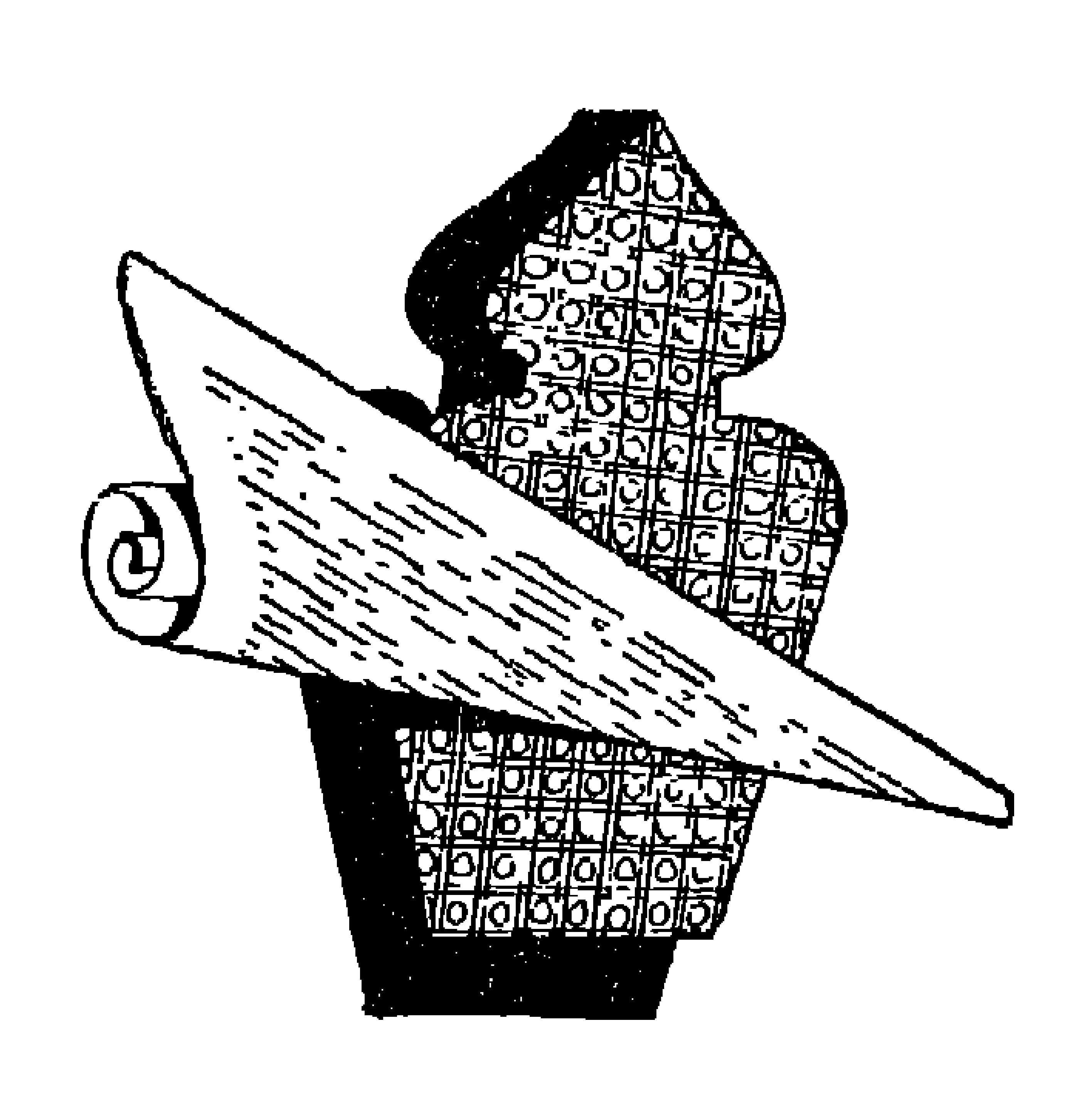
أغلق الاسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر ، والمقامرة ، والربا ، تحريما باتا لا هوادة فيه

لم يدع الاسـلام بعد ما قررنا أصـلا من أصـول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أمًّا من أمهات الصالحات الا أحيـاها ، ولا قاعدة من قواعد النظـام الا قرَّرها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشـده كما ذكرنا حرية الفكر ، واسـتقلال العقل فى النظر ، وما به صـلاح السجايا واستقامة الطبع ، وما فيه انهاض العزائم الى العمل ، وسوقها فى سبل السعى ، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى

هل بعد الرشـد وصاية ؟ .. وبعـد اكتمال العقل ولاية ؟ .. كلا .. قد تبين الرشد من الغىّ ، ولم يبق الا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمـة لبلوغ الغاية من السعادتين

لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وانتهت الرسالات برسالته ، كما صرّح بذلك الكتاب وأيّدته السنّة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدّعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب : «ماكان محمدا أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيّين ، وكان الله بكل شيء عليما »



الفصل التاسع

خاتمة

* ❋ التصديق بما جاء به النبي محمد (ص)
* ❋ مسألتان : جواز رؤية الله . ووقوع الكرامات
* ❋ خاتمة : آيات من القرآن الكريم

التصديق بما جاء به محمد (ص)

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بيّناه ، وأنه انما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره ، والايمان بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ما صرّح به فى الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس .. ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة ، وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى .. وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمسّ التنزيه وعلو المقام الالهى عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر ، وجب صرفه عن الظاهر ، اما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن

الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة(١)

أما أخبار الآحاد، فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها. وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه، وعرضت له شبهة فى صحته — وهو ليس من المتواتر — فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به، والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئا (٢) وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره، فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها .. ويلحق به من أهمله بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنّة فى العمل (٣)

---

(١) الواجب ان يحمل الخبر على معنى يتفق والتنزيه الثابت بالنقل والعقل تدله عليه أساليب اللغة، مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذى وضعه الناس لخلقه، فهو كاصطلاحات العلوم والفنون، فلا يقتضي ان يكون معناه فى وصف الله تعالى عين معناه فى وصف الخلق من كل وجه، بل يكفى ان يكون مناسبا له .. فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ليست من الاحوال والاعراض النفسية ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية، وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية، وهذا معنى قول السلف: والاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومنه مسألة الرؤية الاتية، وقاعدتهم فى ذلك ان نصفه تعالى بما وصف به نفسه بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم فى الكلام على الصفات — هامش « م. ر. »

(٢) اى من أمر الدين هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى

(٣) اكثر السنن المتواترة هى العملية: كصفة الصلاة والحج، واما الاحاديث القولية المتواترة، فقيل: انها لا تبلغ اقصى جمع القلة

من اعتقـد بالكتاب العزيز وبما فيـه من الشرائع العملية ، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى عليه فى ظاهر القول ، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقـاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمنا حقـا .. وان كان لايصلح اتخاذه قدوة فى تأويله (١) ، فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة ، والأصل فى ذلك أن الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك الا احترام ما جاء به على ألسنة الرسل

---

(١) يعنى ان التأويل بهذه الشروط لا ينافى صحة الاسلام ، فلا يباح تكفير صاحبه الا انه لايقتدى به فيه وهذا مذهب اهل السنة والجماعة ـ هامش « م.و.ر. »

مسألتان هامتان

رؤية الله ، ووقوع الكرامات

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام ، وما هما منه الا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه :

الأولى ــ جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة

والثانية ــ جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء : من الأولياء والصديقين

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة .. بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة ، أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة

الدنيا (١) .. وهو ما لايمكننا معرفته ، وان كنا نصدق بوقوعه متى صحّ الخبر، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم .. ولكن مثنى الاسلام بقوم يحبون الخلاف، والله فوق ما يظنون

وأما الثانية : فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحق الاسفراينى من أكابر أتباع أبى الحسن الأشعرى (٢) ، وعلى ذلك المعتزلة ، الا أبا الحسن البصرى فقال بجواز وقوعها .. وعليه جمهور الأشاعرة ، واستدلّ الذاهبون

---

(١) الادراك فى الحقيقة للروح ، وانما الحواس الات لها ، وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب فى هذا العصر : ان من الناس من يبصر ويقرأ ، وهو مغمض العينين ،فيما يسمونه قراءة الافكار ، ويبصر بعض الاشياء دون بعض فى العمل النومى ، ومنهم من يبصر الشىء مع الحجب الكثيرة ، والبعد الشاسع ، كمن ابصر وهو بمصر قريبه فى الاسكندرية خارجا من داره الى المحطة « وهو ما يسمى عند العلماء الان : الجلاء البصرى ويكون فى اليقظة والنوم « ط . ا . ط »

فاذا كان هذا قد ثبت فى هذا العالم على خلاف المألوف فى الرؤية لكل الناس ، فهل يليق بعاقل ان يستشكل ما هو أغرب منه ، وابعد عن المألوف فى الجنة ، وهى من عالم الغيب المخالفة سنته ونواميسه لعالم الشهادة ، وهل كان استشكال منكرى الرؤية الا بسبب قياس عالم الغيب على الدنيا فى الرؤية والمرئى (وهو قياس باطل وبطلانه فى المرئى أظهر، وقد حررت هذه المسألة فى تفسير المنار بتفصيل أثرى سلفى عصرى طويل فيراجع فى تفسير الاية ١٤٢ من سورة الاعراف ص ١٢٢ ـ ١٧٨ ح ٩ تفسير . ـ هامش «« م . ر . ر . »

(٢) وكذلك الحليمى من آكابرهم

الى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى خبر بلقيس من احضـاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها ، وقصة أصحاب الكهف

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، وأولوا ما جاء فى الآيات : أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، فليس بصحيح ، لأن المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ، ولابد أن تكتنفها حوادث تميِّزها عما سواها

وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه ؛ لأن ما فى قصة مريم وآصف (١) قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهـد الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون

---

(١) قال بعض المفسرين فى تفسير « قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » انه وزير لسليمان اسمه اسف بن برخيا ، فجاراهم المؤلف فى ذلك تنزلا ولكن هذا لم يثبت فى قرآن ولا حديث مرفوع ، وانما هو من الاسرائيليات ، وقال بعضهم : انه سليمان نفسه ، ورجحه النيسابورى ، وقال بعضهم انه جبريل ، وبعضهم انه ملك اخر . وجملة القول : ان احضار العرش معجزة لنبى الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات

كذلك ما قالوه فى مسأله الرزق عند مريم ، وانه كان فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه ، لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الاسرائيليات كما بينته فى تفسير ــ هامش « م . ر . ر . »

الله فى أنبياء ذلك العهد الا قليلا

وأما قصة أهل الكهف ، فقد عدّها الله من آياته فى خلقه ، وذكّرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز .. فصار البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق قد يختصّ بعلم آخر

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صـــدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية ، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقـــلاء ، وانما الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنّة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام ، فيجوز لكل مسلم باجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أى ولى كان، ولا يكون بانكار هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنّة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المســتقيم .. اللهم الا أن يكون مما صحّ فى السنّة عن الصحابة

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جُمهور المســلمين فى هــذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء [1] وهو مما يتبرأ منه الله ودينــه وأوليــاؤه وأهل العلم أجمعون



(١) مما تطمئن اليــه روح الاستاذ الامام ان جهاده فى خدمة الاسلام ونشر تعاليمه الصحيحة فى حياته ، قد أثمر بعد وفاته واصبح جمهور المسلمين الان لا يؤمنون بما كان شائعا بين عامة أهل الجيل الماضي عن كرامات الاولياء ومن يسمونهم الاقطاب الاربعــــة المتصرفون فى شئون العالم وغير ذلك من الخرافات

آيات من القرآن

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

وقد فسّر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وانّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذابا صعدا . وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا . وانه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا

يكونون عليه لبدا . قل انما أدعو ربِّى ولا أشرك به أحدا . قل انِّى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل انِّى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . الا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . قل ان أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » . صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسىء الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم

تنبيه

نشر المرحوم السيد رشيد رضافى آخر الطبعات التى اصدرها لهذه الرساله مقالين احدهما بعنوان« ايراد سهل الايراد » . يتناول أحوال المسلمين ، والثانى بعنوان «انتشار الاسلام بسرعة » . وهما ليسا من موضوع هده الرسالة . ولدلك رايناشرهما فى الكتاب الخامس من « تراث الاستاذ الامام » الذى سيصدر قريبا بعنوان « المسلمون والاسلام »

فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

العـــراق : السيد محمـــود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل :
Dr. Michel Tohmé,
Rua Basilio Jafet No. 127,
5" and Sal 54,
SAO PAULO — BRASIL

ســـيراليون :
Messrs. Allie Mustapha & Sons.
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

ســـنغافورة :
M. Ahmed Bin Mohamad Bin Sam[illegible]
Almaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــيريا :
Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

هـذا هو المؤلف الـرابع من المجموعة الاسلامية التى عنى رئيس تحرير هذه السلسلة بتحقيقها ، والتعليق عليها ، وتقديمها ، وعرضها بطريقة تتفق وروح العصر .. احياء لذكرى الشيخ محمد عبده ، وتراثه الحافل بشتى البحوث والدراسات الجادة الرصينة .. لكى يفيد منها ابناء الجيل الحاضر كما افاد منها ابناء الجيل الماضى

و « رسالة التوحيد » من اشهر مؤلفات الامام ، وقد ترجمت لعدة لغات ، وصادفت تقديرا من كثير من العلماء والمستشرقين . وكان مما قاله عن هذا الكتاب أحد علماء اللغة المعروفين فى ذلك الحين : ((.. ما اظن ذوب العسل المصفى احلى عندى منه . اقرؤه ولا أمل ، ثم اعيده متلذذا به))